HOME TASTE

رانيا الطنوبي

بطعم البيوت

KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بطعم البيوت

رواية..

الكاتبة: رانيا الطنوبي

اهداء..

إلى كل مبادر لا يزال يؤمن أن أهم خطوات السعي..
«محاولة»
إلى روح عطيات الأبنودي الأم... والمخرجة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إن الناس لو كانوا إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا»
عمر بن عبد العزيز

ظهرت الصورة تدريجيا بالتزامن مع صوت أنثوي قالت صاحبته:
«يعني هو الموضوع مفرح، أنتِ هتبقي أم»
ظهرت بعدها غرفة أطفال فارغة، معتمة الإضاءة إلا من ضوء مصدره نافذة صغيرة، أثاثها زاهٍ -أبيض وزهري- لكن مع العتمة بدا باهتا، وشيئا فشيئا ابتعدت الصورة حتى عاد الظلام وعاد الصوت
«بس الأمومة مش بالساهل»
«بس ممكن»
عدنا لغرفة الأطفال ووقفت هي عند النافذة، فتحتها فملأت الغرفة نورا أضاء الغرفة وتبين وجهها، كانت ثلاثينية بحجاب وردي وقميص أبيض، وقفت بجوار النافذة وقالت:
«كنا لسه في ٢٠١٤»
«خوفت قوي لما سمعت الكلمة»
«احتضان»
«أنا عايزة أكون أم بس خايفة»
«مكونتش أعرف أي حاجة عن الأطفال دي»
«كل اللي أعرفه إن المجتمع رافضهم، طيب احنا هنقبلهم ازاي؟»
«وهيبقوا ولادنا»
ظهرت وحدها في وسط الشاشة وأكملت:
«بس أنا كنت عايزة بيتي يبقى زي كل البيوت»
«مليان حياة ودفا ودوشة»
«يبقى بطعم كل البيوت»
علا صوت في الخلفية سألها:
«وحققتِ ده؟»
.....
لمعت بعينيها الدموع وقالت:
«أنا حاولت»
«وكانت دي الحكاية»
اقتربت الصورة من النافذة وظل القرب يزداد حتى غطت السماء الشاشة وعلا صوت كروان..
ثم ظهرت حركة لأناس يحملون كاميراتهم ويقفون على سلالم إحدى دور الرعاية وصوت أجش لشخص يقول: ممنوع تصور جوا... وصوت من يحمل الكاميرا: خلاص هنصور هنا، ثم ظهرت أقدامهم وهم يصعدون السلالم ثم ظهرت غرفة بها أنتريه بني قديم باهت قيل أنه مكان الضيافة.
ظهر طفل يتوسط الأريكة الكبيرة، كان ساهما وينظر للأرض، بدا في عمر الخامسة عشر، بعد مرور لحظات ظهر يتوسط الشاشة وقال:
«اسمي علي»
«ممكن ميكونش ده اسمي الحقيقي»
«وممكن الاسم ده يتغير»

دمعت عيناه وأكمل:
«مش هتفرق»
سألته المُعدة وقد علا صوتها دون ظهورها:
«أنت رجعت الدار امتى يا علي؟»
«الشهر ده، أول الشهر ده»
«جه بابايا وقالي هترجع»
«أنا عيطت»
«خوفت، محدش عايز يسيب بيته»
«أي حد عايز باباه ومامته، عايز بيته اللي عاش فيه»
«مقولتلهومش مش عايز أرجع الدار؟»
«قولتلهم؛ قولت كتير وعيطت كتير»
«كان نفسي أصعب عليهم بس مصعبتش»
«ورجعت»
توالت دموعه وقال:
«أنا حاسس إن الدنيا كلها مش عايزاني»
«حاسس زي ما يكون مليش مكان فيها»
«حاسس بشرخ في قلبي»
«يا ريتهم ما كانوا أخدوني»
أكمل وهو يمسح دموعه بكفيه:
«هو محدش بيختار نفسه، ولا بيته ولا أهله»
«لو كان ينفع أختار هاختار عيلة تشوفني ابنهم»
«مش زي ابنهم»
عشان أنا تعبتني قوي كلمة «زي»
أنا عايز أكون ابن بجد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١)

لا زالت في سحر الأبيض والأسود عالقة..
وكأنها لم تغادر زمانه، في ملامحها تشابه وجدتها «توفيقة» يُشعرها أن «الزقازيق» حية في زوايا غرفتها بفيلتهم بـ»حي النرجس»..
لا تعرف جدتها «التجمع الخامس»، ماتت حتى قبل ميلاده، ولم يبق من ذكراها إلا صورة -بالأبيض والأسود- علقتها رقية على سبورة بيضاء بغرفتها، تتأملها كلما تسنت لها فرصة فتكسو الابتسامة ملامحها وهي تراها في فستان زفافها وطرحتها وجدائلها الطويلة المتدلية فوق أكتافها..
كل يوم ترتدي «رقية» الأبيض والأسود وتطالع مرآتها علها تجد في انعكاس صورتها نفسها لكن سطوع الألوان يعكر إطلالتها فتغيب بسمتها فتتمنى لو بهتت الألوان كما الصورة علها تحمل نفس الرونق أو تجد رقية.
أحيانا تشعر وكأنها عالقة بالزقازيق كمنسية بحجر جدتها. روحها هناك لكن جسدها هنا تائه، يشتاق للروح التي فارقها ولم يبق منها سوى صورة تتأملها كل صباح حتى تلاحظ تأخرها فتغض الطرف عن مشاهدتها.
عادت ووقفت أمام المرآة، أغلقت أزرار الجاكت الأسود فوق بلوزتها البيضاء، ثم وضعت بجيب الجاكت هاتفها وبالجيب الآخر محفظة تحمل فيها نقودها وأوراقها، وبجيب بنطالها الأسود مفاتيح سيارتها، ثم انتعلت حذاءها الرياضي الأبيض ولم ولن تمسك حقيبة لأنها تكرههم.
بيوم عادي كانت ستغادر عند التاسعة لكن اليوم غادرت أبكر لأنه يوم تصوير، استعدت من مغرب اليوم الفائت ثم أكدت على «أم زينة» وهي واحدة ممن يعملن بالفيلا أن توقظها في السادسة وضبطت هاتفها ومنبها إضافيا ولكن كما عادتها لم تنم.
عند الخامسة فرشت أسنانها وصففت شعرها، ثم جمعته بمشبك عاجي كي تضمن ألا يزعجها هيشانه، ثم أعادت قراءة الـ«storyboard» الخاصة بالإعلان للمرة العاشرة أو العشرين.
وعند السابعة غادرت من التجمع إلى وسط البلد وطوال الطريق رافقها «شآبيب» كما اعتادت أن تسمع كتبا صوتية.
قرابة التاسعة كانت أول من وصل للوكالة التي تعمل بها مخرجة إعلانات وأفلام دعائية.
«OG image»
عند وصولها وجدت العمال يقوموا بتوصيل المعدات الكهربية والكاميرات، بينما المسئولين منهم عن الديكور يقومون بتركيبه، شعرت بالحماس وتناست ضيقها من العمل بالوكالة بل وتناست نفسها واتسعت ابتسامتها وهي ترى السقف داكن الزرقة وهو يطلى بنجوم فضية وفي الجدار المقابل لوقفتها وُضع «بانر» مرسوم عليه «علبة زبادي» بحجم صغير ثم «بانر» آخر لنفس العلبة بحجم ضخم قد تم التأكد من سلاسة تحريكهما أتوماتيكيا، عندها انتهوا من بناء الديكور ليشبه «المسرح».
«الله ينور يا جماعة»
قالتها ثم تأكدت من تحريك البانرات وثبات السقف وثبوت الديكورات، ثم جاورت بعدها مسئولة الإضاءة لتتأكد من إضاءة الزوايا وبعدما تأكدت من عمل الكاميرات وسلامة الوصلات، أخرجت هاتفها ونظرت للساعة، كانت العاشرة والربع، وقد جاء بقية العاملين معها؛

ضياء - مدير التصوير
هادي - مساعده ومسئول كاميرا الـ (dolly[1]) تالين - stylist
مايسة - مسئول الديكور وإضاءة
والي - مونتير
عفيف - مهندس الصوت
وبقية العمال كانوا يأتون وفق الحاجة، أما طرقة الكلاكيت فكانت من نصيب «عم سعيد» المسئول عن «البوفيه» والذي كان يعرف عندما تناديه رقية قبل بدء التصوير أنها سترافق نداءها بطلبها الاعتيادي..
«قهوة اسبريسو دابل بدون سكر أو لبن»
ووحده المتغيب عن الحضور هو خطيب رقية؛ مدير الوكالة «ياسين منصور» إذ يكون آخر الحاضرين متعمدا.
انتشروا كلّ في موقعه وشيئا فشيئا خفتت الحركة الدؤوب حتى ظهرت الصغيرات بطلات الإعلان وركضن نحو رقية..
وحدهم الأطفال كانوا مخرجها كونها تعاونت معهم في كل إعلاناتها السابقة وكانوا البديل المميز في نظرها عوضا عن اختيار الموديلز النسائية؛ فهي تكره استغلالهن للترويج لأي منتج.
فتحت ذراعيها واحتضنتهن ثم منحت كل واحدة منهن قبلة وسألت: مذاكرين كويس.
- أيوة.
هتفن فقالت: برافووووو، أحلى بناويت والله.
رفعت كفها لأعلى وخبطت كفوفهن كف بعد كف وهي تضحك ثم أكملت: جاهزين يا بنات
- جاهزين، تمام
ثم نادت: عم سعيد معايا
أتاها وهو يحمل خشبة الكلاكيت ووقف مكان ما أشارت، فنادت بعدها: عفيف جاهز.
أشار بإبهامه كعلامة لجهزيته، فذهبت لتجلس بالمكان المخصص لها وهتفت بعدما وضعت السماعات بأذنيها:
«سكـــــــــــــــــــــــــوت»
(إعلان زبادي فلامنجو - scene١ - take١)
Action
دارت خمس فتيات في لقطة واسعة، على نغمات بحيرة البجع لتشيكوفيسكي، على أطراف أصابعهن تمايلن ثم رفعن أيديهن لأعلى، في فساتين بيضاء حريرية ذات تنانير وردية من التل المفضض.
دُرن دُرن دُرن..
تمايلن تمايلن تمايلن..
يمينا يسارا..
لأعلى لأسفل..
وليست رقية وحدها من تجلت البسمة على شفتيها، حتى ظهرت أصغرهن ودخلت لتتقدمهن فاتسعت الابتسامات متتالية..

دارت انزلقت صرخت ثم تأوهت وجعا..
«stooooooooooooop»
تركت رقية مكانها وركضت وجلست على ركبتيها أمام الصغيرة وقالت تطمئنها: حبيبتي متخافيش، don’t worry، مفيش حاجة حصلت.
جلب عم سعيد زجاجة مياه معدنية صغيرة وأعطاها لرقية فسَقت الصغيرة منها وربتت على كتفها وساعدتها لتقف مستندة على يديها ثم سألتها: وجعاكِ
- تؤ.
- حبيبتي.
مسحت على شعرها بحرص حتى لا تنزع التاج الفضي من فوق رأس الصغيرة، ثم أكملت: لو مش هتقدري تعملي الحركات هأجل لبكرة.
استوقفها صوت تتابع التململ من حولها لكنها لم تبال، بينما الصغيرة قالت: أنا كويسة
وضعت قبلة على خدها وقالت: طيب حاولي توريني هتعرفي تقفي
دارت الصغيرة بثبات فابتسمت لها وقالت: شاطرة يا توتة، نحاول تاني
أومأت رأسها مبتسمة فعادت رقية لمكانها وعلا الصوت ثانيا
«سكـــــــــــــــــــــوت»
(إعلان زبادي فلامنجو - scene١ - take٢)
Action
انتظرت تطابق حركة الكاميرا وهي تتداخل تدريجيا مع دخول الصغيرة لتتقدم بقية الفتيات كما كتبت بالـ«storyboard» بجوار اللقطة الثانية
«dolly in»([2])
لكنها تفاجأت بتغييرها دون إخبارها بحركة اعتمدت على ثبات الكاميرا وتحريكها يمينا ويسارا بالتتابع بين الفتيات
«panning»([3])
ظنت الأمر تشوش على ضياء لكنها صُدمت مع تتابع اللقطات حين ابتعد عن الفتيات لتتصدر الصغيرة وحدها العدسة فاستبدل
«Dolly out»([4])
التي كتبتها بالـ storyboard بـ
«Zoom in»([5])
ومع دوارن الصغيرة تحرك البانر الخلفي لتظهر علبة الزبادي مقاربة لطول الصغيرة وقد عادت الكاميرا لثباتها
«Panning»
بين علبة الزبادي والصغيرة وصوت أنثوي يقول في الخلفية
«الزبادي مش بس للهضم»
الزبـــــــــــادي
«لأقوى عـــضـــــم»

«stoooooooooooop»
ضربت رقية المنضدة المواجهة لها بيدها حتى أن الصغيرات فُزعن، ظنن أنهن أخطأن لكنها توجهت ناحية ضياء بخطوات تشبه انفعال ضابط يهرول ناحية من أتى بجرم وزعقت متحفزة:
- ايه اللي أنت عملته ده؟ أنت ازاي تبوظ الإعلان بالشكل ده؟
استدار غير عابئ بغضبها وقال متهكما: أفندم، إعلان إيه اللي باظ؟ ما دي آخر تعديلات اتفقنا عليها؟
- أنت بتهرج، مفيش ولا حاجة من اللي اتكتبت في الstoryboard اتنفذت.
- باهرج؟ أولا لما تتكلمي معايا تتكلمي كويس، وثانيا أنا رجعت لياسين وقولتله إن اللي أنتِ عايزة تنفذيه مش هينفع، ال following في «one take» في الإعلان ده مش هينفع يا أستاذة، وهو قالي أعمل الأنسب وأنا عملته.
- من غير ما ترجعولي! من غير ما تناقشوني! بتغيروا رؤيتي وتعدلوا على شغلي وأفكاري من غير حتى ما تعرفوني؟
صدمها أن وصل بهم الحد من الاستهتار بوجودها لدرجة تعديل عملها دون حتى الاهتمام بإخبارها، اعتادت توقع التعديلات، والكثير من المفاجآت لكن بكل مرة كان ياسين يخبرها ولو على الأقل باللحظات الأخيرة محاولا إقناعها تفاديا لغضبها أو رغبة في إسكاتها، لكن يبدو أن تهاونها قد أهانها؛ إذ فُسر رضاها بأنها ليست مهمة.
«رقية بتتراضى»
«رقية مقدور عليها»
وها هو آخر الردود الاعتيادية قالها ضياء هازئا وهو يخبرها بما قاله ياسين بالأمس
«سيبوا رقية عليا»
ثم أردف: وعلى الأساس ده اشتغلنا
- بقى كدا.. أوكي يا ضياء
تركته وعادت مكانها تجمع أوراقها من أمام منضدتها وقالت وهي تغادر
«فـــــــــركـــــــــش»
ثم وقفت والتفتت لهم جميعا وقالت: والإعلان ده مش هيتصور
سار ضياء خلفها وهتف فيها: هو لعب عيال؟ دي فلوس ناس، ده شغل يا أستاذة، احنا مش بنلعب.
- لما يبقى في احترام للشغل ده أبقى أشتغله
- «رقيـــــــــة»
خيم صوته الرخيم على المكان وهتف ضياء ما إن وجده أمامه:
- كويس يا ياسين إنك جيت، عشان تشوف المهزلة اللي عملاها رقية.
- في إيه؟
وقف أمامها وسأل بنبرة هادئة مشحونة بالغضب فتوترت وقالت: أنت عارف في إيه.
- طيب تعالي معايا.
سبقها إلى غرفة مكتبه فضحك ضياء وهو يبصرها تتحرك خلفه ضحكة هازئة، وسمعت همسا من تالين لهادي لم تتبين منه إلا كلمة واحدة
- «مهزأة».
كانت تعرف أنها واحدة من صفات كُثر تُقدح بها بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاصرتها جدران غرفته التي تُذَكِّرها أن للقمع لونا، يُعرف حين تتجانس أفتح درجات الأزرق والرمادي وكأنه أبيض تعكر وعجز أن يميل لأحدهما، فتشعر وهو يرفعها بكلماته ليمتص غضبها كأنها تتوسط غيمة يخنقها مطر لا يسقط، بل يتخبط..

- «ينفع كده يا رقية؟»

كانت قد جلست على رأس الطاولة المستطيلة التي تتوسط غرفته وتحمل لون القرفة، على المقعد الجلدي الذي يحمل اللون نفسه، وقف بجوارها ثم وضع يده على الطاولة أمامها والأخرى على ظهر مقعدها وانحنى قليلا ليجاور همسه أذنها وأكمل: وأنا اللي راجع مبسوط من الmeeting اللي كنت فيه وباقول لنفسي عامل لروكا surprise إن في إعلان مهم جايلنا، أجي ألاقيكي عايزة تبوظي اللي لسه بيتصور.

- كان المفروض تقول لي.

- نسيت، والله يا روكا نسيت.

قالها ببساطة سكبت الزيت على غضبها، تعرفه وتعرف كيف يراعي أدق تفصيلة وأبسطها ولا ينسى شيئا بل لا يسمح لعقله أن ينسى، اغتاظت ليقينها أنه ما كان ليستطيع التصرف بتلك الطريقة إلا معها فجاهدت نفسها اتخاذ موقف وردت بنبرة حاولت أن تبديها حادة: وأنا .... أنا مش هاقبل باللي حصل

- «رووكـــــــــا»

ابتعد عنها وخلع جاكت بدلته الزرقاء ووضعه على ظهر كرسي مكتبه وثني أكمامه حتى مرفقه وقال: أنتِ ليه مش قادرة تستوعبي إن كل الإعلانات اللي بتجيلنا لحد دلوقتي «low budget»

- وأنت ليه مش قادر تستوعب إن كل يوم شغل هنا بيبعدني عن حلمي.

- يووووه، تاني يا رقية.

- يا ياسين أنا خلاص مبقتش قادرة أشتغل هنا، كل الـcrew بيكرهني، لا كلامي ولا شغلي له معنى، تقدر تقولي أنا باعمل هنا إيه؟

زفر ثم قرب أحد المقاعد من مقعدها ليكون قبالتها تماما وأمسك كفيها وأكمل: أنتِ محتاجة الوكالة، محتاجة تتعلمي الشغل، محتاجة علاقات وناس تعرف اسمك عشان يجيلك شغل، الناس والعلاقات هي أساس شغلنا، لوحدك عمرك ما هتعرفي تعملي حاجة ولو مشيتي من الوكالة محدش هيعرف اسمك.

صمتت ونكست وجهها فرفع ذقنها ليقابل وجهها وجهه وأكمل: أو هيتعرف وهم بيقولوا المخرجة اللي اتعودت تعطل الشغل وده هيأثر علينا وعليكِ أنتِ كمان يا روكا.. ولا إيه؟

تطلعت لعينيه فأثقلتها غيوم رماديتهما فانتابتها رجفة ازدادت حين رُسم على فمه ذي الشفة السفلية الكبرى ابتسامة أوسع، ترك يديها وخطا ناحية باب مكتبه وقال بعدما فتحه بصوت مسموع لمن كانوا خارجه: هابعتلك عم سعيد بأحلى دابل اسبرسو، اشربيها واطلعي كملي شغلك.

خرج من مكتبه وبصوت سمعته هي بمكانها قال: يلا جماعة نجهز عشر دقايق وهنكمل

- عاش يا ريس.

لم تتبين من قالها ربما هادي ومن الجائز ضياء، لكنها استشعرت ضحكة تالين عالية، وعجزت عيناها عن نفر دمعها، كُبت كما مطر الغيمة واستشعرته ارتد بحلقها.

طالعت الفراغ وتلاشت الأصوات حتى أن كوب قهوتها قد ظهر من العدم، وقفت ونظرت لأوراقها التي تحمل جهدها وتركتها بجوار القهوة وخرجت من الغرفة، كان الجميع يؤلون ظهورهم للغرفة فلم ينتبه منهم أحد لوجودها وكأنها من بقايا العدد، بينما الكل ملتف حول ياسين يحاورهم ويصغون باهتمام لكل كلمة يقولها..
جاهدت نفسها أن تخطو عائدة لمكانها لكن نظرة ضياء حين شزرها أبقتها بمكانها للحظة طالعت فيها المكان من حولها ثم توجهت للحمام، غمرت وجهها بالماء لكنه لم يطفئ غضبها فلم تستطع العودة لعملها فخرجت من الحمام واتجهت لسيارتها وركبتها وانطلقت عائدة لفيلتها، وطوال الطريق رافقها رنين هاتفها ورغم يقينها بما ينتظرها ردت فجاءها صوت ياسين يزعق: برضو عملتي اللي في دماغك يا رقية، ماشي.
- مقدرتش يا .....
أغلق المكالمة دون أن تكمل جملتها فألقت هي هاتفها بجوارها وزادت سرعتها حتى وصلت وبالجراج المجاور لمبنى الفيلا صفت سيارتها ثم صعدت الثلات درجات من رخام «البورسلين» الأزرق اللازوردي وفتحت باب الفيلا بمفتاحها.
بعينيها ضاق مدخل الفيلا الواسع بغرفه الأربع المطلة على بعضها البعض دون فواصل من أعمدة أو حوائط، وجدت والدتها كعادتها برفقة صديقاتها بالغرفة المجاورة للتراس والتي استحدثت فيها ركنا للقهوة قبل عدة أشهر.
كن ثلاثة تجاورن على أريكة مبطنة بقطيفة زرقتها تميل للأسود، قبالتهن شاشة كبيرة.. كن يشاهدن عليها عرض أزياء «إيلي صعب» بأفواه مشدوهة وابتسامات متحفظة، شعرت والدتها بقدومها فوقفت أمامهن ورحبت بها وقالت وهي تضع جهاز التحكم على الطاولة البيضاء التي كانت بالوسط بينهن وبين التلفاز: ما تيجي تشوفي معانا كولكشن الصيف.
نظرت لأطباق حلوى التريلشتا بأيديهن والتي طلبتها والدتها خصيصا لأجلهن وقالت دونما تعليق على ما يتابعونه: معلش أنا تعبانة وهاطلع أرتاح
- تمام يا حبيبتي
ردت والدتها وعيناها بشاشة التلفاز بينما رقية صعدت لغرفتها، ثم أغلقت هاتفها وتمددت على سريرها فغلبها النوم حتى دون أن تبدل ملابسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هزت أم زينة كتفيها لتوقظها وقالت: اصحي يا ست رقية، يا رقية، اصحي يا بنتي
اعتدلت مستغربة أن غفوتها طالت حتى الليل لكن مرآة تسريحتها المقابلة لسريرها أكدت لها حين رأت شعرها أشعث وملابسها مجعدة.
فركت عينيها وقبل أن تستفهم وجدت والدتها تقف عند باب غرفتها، أمرت «أم زينة» بالتأكد من ترتيبات العشاء ووقفت أمام سرير ابنتها ممتعضة وقالت: أنت هتتحملي مسئولية بيت وأولاد ازاي بتصرفاتك دي؟ ده الله يكون في عون ياسين والله.
وجدت المشبك العاجي بجوار وسادتها فجمعت به شعرها كيفما اتفق، واتجهت لخزانة ملابسها وقبل أن تسحب منامة لتبدل ثيابها قالت والدتها: جهزي نفسك والبسي dress حلو، عشان ياسين ومامته جايين على العشا.

زفرت وقد أدركت أن شجارا مع والدها سيكون بانتظارها بعدما يحكي له ياسين عما حدث اليوم بالوكالة، فاعتلاها الضجر.. رأتها والدتها لكنها لم تعلق وحوت كتفيها بيديها وابتسمت وهي تؤكد: dress حلو وبلاش أبيض وأسود، أوكى يا روكا؟
تركتها وغادرت فامتلكتها حيرة وهي تدفع بقطع ملابسها المعلقة بخزانتها لتختار منها ما تراه والدتها مناسبا.
عند الثامنة والثلث سمعت سيارة ياسين وهي تصطف في جراج فيلتهم وصوت أبيها وهو يستقبله ووالدته، صففت شعرها وتركته متموجا حول رقبتها وأطراف أكتافها ولم توفق في اختيار فستانها القطيفة الفيروزي إذ أبدى خصرها نحيلا وأبرز عظمتي ترقوتها.
عندما رأتها حماتها تجهمت وكأنها تلعن سوء حظ ابنها؛ الوسيم حظي بأم أربعة وأربعين، وإن لم تقلها صراحة قالتها عيناها.
كانت جلستهم بالصالون المواجه لغرفة الطعام والتى ميزتها «زينات» ببابين يُفتحان للأمام عند دخولها.
لم يقل ياسين شيئا عن عملهما، بل جلس يحكي عن مقابلته اليوم مع مسئول التسويق بإحدى شركات صناعة الحلويات وكيف استطاع غلبته واقتناص عرض أفضل ونسبة أعلى عن كل الإعلانات السابقة.
وحماسته حثت والدها المبتسم ليحكى عن نجاحاته وصفقاته فبدا لها شغف ياسين متجليا وكأنه لم يغرم في تلك الزيجة إلا بوالدها.
تأففت والدتها وحماتها فجلستا على أريكة أبعد ليتحدثا عما أعجبهما بالعدد الأخير لشهر يناير لـ«أيكيا»
ودون أن يلاحظوا أبقوا رقية وحيدة في منتصف الأريكة الأكبر لصالونهم الأرزق الثلجي، ساهمة وغارقة في فراغها.
عند التاسعة تقدمت زينات وفتحت بابي غرفة الطعام، وخلفها أتي البقية، جلس كامل على رأس الطاولة وعن يساره جلست زينات وبجوارها والدة ياسين..
وعن يمينه جلس ياسين وبعده رقية، حول طاولة بيضاوية كبيرة غطاها مفرش حريري بلون كريمي منقوش بوردات صغيرة ذهبية.
جدران الغرفة مالت للون السكري وكل أثاثها فاض بالذهبي، مقاعد ومرايا وكنسول وُضعت عليه صورهم.
جلبت أم زينة الطعام فانتبهت رقية لكونها لم تأكل شيئا منذ الصباح، وضع كل منهم قطعة لحم بطبقه وعادوا لحواراتهم الجانبية وهم يأكلون قطعا صغيرة بأطراف الشوك، وظلت رقية صامتة ولولا جلبة سكينها وهي تقطع قطعتها بصعوبة ما كانوا لينتبهوا لوجودها، أحرجتها نظراتهم فتركت السكين من يدها، وشربت من كوب الماء أمامها، فبادرت حماتها وسألت: الأكل مش عاجبك ولا إيه يا روكا؟
- لا أبدا يا طنط.
- يمكن خايفة تتخني فياسين يبص بره.
ضحكت وضحكت والدتها ثم علقت: إيه اللي بتقوليه ده بس يا دولي هو في زي ياسين في أخلاقه وأدبه

- لا وبيحب روكا قوي يا زيزي.
ابتسم ياسين ثم نظر لرقية وقال: ما هو مفيش زي روكا، اللي معاه روكا ميعرفش يبص لغيرها.
ابتسمت والدته بجانبي شفتيها بينما رقية طالعت عينيه فتنحنح والدها وهب واقفا وسأل ياسين مرافقته لمكتبه ليحتسيا سويا القهوة، وانفضت الطاولة وبقايا الطعام هي الطعام كله..
تركوها وحيدة فاتجهت للتراس المواجه للغرفة ذات ركن القهوة وأسندت مرفقيها على سورها الأبيض.
وشردت في طريقة ياسين التى جعلت الخوف يسيطر على أفكارها، حتى شعرت بذراع يحوي كتفيها فانتفضت، فابتسم وهمس بجوارها: أنتِ عارفة أنا لو كنت حكيت لأونكل كامل على اللي عملتيه فيا النهاردة، كان ممكن يعمل معاكِ إيه؟
لف جسدها لتكون في مواجهته وأكمل: بس أنا مش هاعمل كده.
وذلك يعني أن القادم أسوأ، خفق قلبها قلقا فتابع هو بنبرة هادئة: أنا برضو ميهونش عليا زعلك حتى لو مش فارق معاكِ مصلحتنا.
تجرفها طريقته، تشتتها لدرجة تربكها وتشعرها أحيانا أنها من أخطأ وكثيرا ما ينتهى خصامهما باعتذارها حتى لو لم يكن الخطأ خطأها.
شعرت بنفسها أسيرة باحتواء ذراعه لكتفيها فدفعته برفق وقالت وهي تنظر لعينيه: ياسين أنا حاسة إننا محتاجين نناقش شغلي في الوكالة، في حاجات أنا مبقتش قادرة أكمل بسببها.
زفر ثم تغافل عن التعليق وأخرج هاتفه من جيبه وفتحه ليريها صورة الشوكولاتة ثم أخرج من جيبه، شوكولاتة بمغلف أخضر وفضها ووضع قطعة بفمها وقال: إيه رأيك؟
امتعضت وهي تبتلعها غصبا وقالت: وحشة جدا.
- همتك معانا بقى، عايزينها تريند، وأحسن شوكولاتة في مصر
زفرت وأشاحت وجهها ناحية الحديقة وقالت:
- يا ياسين أرجوك.
- رقية بطلي تفكري بعواطفك وتقري بوستات الفيس بوك بتاعة اتبع شغفك واعتزل ما يؤذيك، عشان الشغل يا روكا مفيهوش قادر ومش قادر، الشغل شغل يا روكا، أوكى يا حبي.
صمتت ولم تعلق فسألها: أستنى منك التصور بتاعك؟
عقدت ذراعيها وطالعت السماء فهتف: روكا أنا باكلمك.
لم ترد فتابع: طيب أنا عندي حل، خدي break، واشتغلي من البيت.
استدارت تطالعه هازئة وعلقت: ده بجد؟
شعر أن استمراره بالكلام معها سيصل به لطريق مسدود فوضع قبلة باردة على جبينها وقال ناهيا حوارهما: يومين كده وابعتيلي تصوراتك واتس آب.
ثم ترك لها الشرفة وعاد ليجالس والدها، فصعدت غرفتها وصفعت بابها فور دخولها.
حاوطتها رمادية جدران غرفتها بأثاثها الأسود فأغمضت عينيها وجلست على طرف سريرها ثم حدقت بالحائط الوحيد الأرجواني المقابل له؛ المختلف حتى في تفاصيل ما يحمله ففي منتصفه تسريحتها ويمينه سبورتها البيضاء ذات الإطار المعدني التي عليها تراصت أحلامها، في أوراق صفراء وبرتقالية -(sticky notes)- اعتادت تثبيتها بدبابيس خضراء وحمراء.. بجوار صورة جدتها وصورة لها في صغرها، وجملة كتبتها في أعلى السبورة بالأزرق

- «أنا بحلم على قد ما معايا»
سمعتها من بطلة فيلم «الأحلام الممكنة» لعطيات الأبنودي، المرأة التي كانت سببا في غرامها بالأفلام الوثائقية وحب الإخراج وتمني السير على طريقها.
شعرت بالحنين لرؤية الفيلم، فأعادت مشاهدته دونما حساب لعدد مرات تكرارها، جلست على مقعدها المدولب أمام مكتبها المواجه للسبورة؛ وأضاءت المصباح الفضي المتدلي من فوقها والذي اعتادت إضاءته وحده عندما تسهر ليلا.
تنسمت رائحة فجر قرية جبلاية السيد هاشم وتفاصيل السويس سنة ثمانين، حتى رائحة الخبز من فرن الطين، ترقرقت عيناها بدمعة رغم امتلاء وجهها بابتسامة، حين تذكرت جدتها عندما وصلت لنهايته والبطلة تقول:
(طبعا، بحلم على جد ما معايا)
(فأنا يعني معنديش واحلم حلم أكتر من اللي عندي؛ لا)
(بحلم على جد ما معايا)
فرت من عينيها دمعة لعنت معها الوحدة، واللحظة التي انتُزعت فيها من حجر جدتها، وحدها كانت معها، ومن بعدها أيقنت أن أحلامها بمقاس وحدتها إذ لم تعد تملك من يشاركها، لطالما ظنت أن تمويل أفلامها سيكون العاقبة، لكنها لما كبرت أدركت أن الوجه الآخر لمعاناتها أنها دوما بمفردها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بتجويف مكتبها ثلاثة أرفف تتراص فيها الكتب متجاورة، سحبت كتاب «مكتبة ساحة الأعشاب» وقامت بتشغيل «أوبرا كارمن» على هاتفها ثم تمددت على سريرها تقرأ، في منامة صوفية سوداء ذات دوائر صغيرة بيضاء وكعادتها كان بجوارها قلم ومفكرة كلما طرأت فكرة شعرت أنها قد تصلح لشيء دونتها، وحدهما الكتب والأفلام الوثائقية هي ما يهون عليها عزلتها الاعتيادية، تلك العزلة التي تُفرض عليها إذا ما تشاجرت مع ياسين أو أحد زملائها، تغيب كردة فعل ثم على أقصى تقدير تعود بالكثير بعد ثلاثة أيام فيربح كل من راهن على ضمان وجودها رهانه.
هذه المرة تخطت اليوم الخامس ولكن بصعوبة، وتشاجر معها ياسين صباحا لأنها لم ترسل أي فكرة لإعلان الشوكولاتة، وتعرف أن شجارا آخر ينتظرها بالمساء مع والدها من أجل ياسين لكنها سئمت، وملت ضمان وجودها بل وكرهت خوفها من وحدتها، وخوفها أن يتركها ياسين فتعيد والدتها ما اعتادت قوله:
- مين هيجيلك لو ياسين مشي؟ هنلاقي فين عريس زيه؟
زفرت ووضعت bookmark عند الصفحة التي توقفت عندها وتركت كتبها على الكومود المجاور لسريرها، تذكرت أن لديها معدة فاضطرت للخروج من غرفتها فلم تجد أثرا لأهلها بالفيلا.
نزلت للمطبخ وجدت «أم زينة» وابنتها اللتان تعملان بفيلتهما تجليان الأطباق، فسألتهما عن والديها فأجابتها زينة: زينات هانم خبطت عليكِ وقالتك أنها هتخرج، أصلها هتسافر هي وكامل بيه دبي بعد بكرة.
- «مسافرين؟!»
شهران بمصر، شهران بدبي، أدركت أنها تناست أنهم على عتبات منتصف يناير، وأنه قد حان موعد سفرهما دون أن تتذكر هي أو يذكِّراها..
لكن أم زينة استدركت استغراب رقية وعلقت:

- تلاقيهم قالولك يا ست رقية وأنتِ ولا أخدتِ بالك.
لم تجد رقية ما تقوله، سحبت مقعدا موضوعا بالمطبخ أمام طاولة مربعة وجلست عليه فسألتها أم زينة: أحضرلك تاكلي؟
- لا.. أنا هاعمل.
بحثت عن مقلاة ثم أخرجت من الثلاجة بيضا وبسطرمة وجبن شيدر وزبدة واتجهت للموقد فاستوقفتها أم زينة وقالت: طيب قولي اللي أنتِ عايزاه وأنا أعملهولك.
- تسلميلي يا أم زينة، أنا عايزة بس الفلفل الأسود.
ناولتها إياه فأذابت الزبدة، وضعت كل المكونات دفعة واحدة وأخفضت نار الموقد وتركته وراحت تبحث عن خبز بلدي عوضا عن التوست الأسمر الذي لا تفضل والدتها سواه على الطعام فمنحتها زينة رغيفا من عندها؛ فهما يجلبان معهما الخبز البلدي من الفرن القريب من بيتهما، وضعته رقية فوق الطاسة لتدفئته ثم وضعت الطعام على طاولة مستديرة موضوعة بالمطبخ وجلست تأكل، قسمت رغيفها نصفين وبدأت في تغميس اللقيمات ثم قالت مشتاقة: مكنش ناقص الأكلة دي غير فلفل مخلل.
- عندنا فلفل وزيتون..أجيبلك؟
- بجد؟!
تهللت أساريرها وزينة تضع لها طبقا صغيرا يحوي الفلفل الحار المخلل والزيتون الأخضر، فتناولت عشاءها وهي من آن لآخر تفتح فمها وتتجرع شربة ماء لتخفف من حرارته، وحين انتهت أعدت لنفسها كوب شاي بالنعناع وصعدت به لغرفتها.
مساءً لم يتشاجر معها والدها لضيق وقته وانغماسه في تحضيرات سفره، وبدت الفيلا كلها تتأهب حتى يوم سفرهما.
في تلك الليلة لم تنم رقية حتى ودعتهما وبقيت بالمنزل دون أن ترافقهما للمطار؛ لأن موعد الطائرة كان الرابعة فجرا، بعدها نامت للعاشرة وعند استيقاظها استفاقت على السكون، زفرت متململة حتى قبل بداية يومها ولم تستطع البقاء بغرفتها ففتحت خزانتها ووقفت أمامها شاردة، فكرت أن تبدل ملابسها وتخرج لكنها تراجعت كي لا تخرج بمفردها، أغلقت خزانتها وسحبت كتابا لتقرأ فيه لكنها ملت بعد قراءة صفحتين فأعادته ثم أمسكت هاتفها وفتحت رسائل الواتس آب بينها وبين ياسين فلم تجد رسائل جديدة منذ آخر شجار جمعهما، فألقت هاتفها على سريرها وظلت تجوب غرفتها ثم وبشيء من عدم الرضا أمسكت قلم السبورة الأسود وكتبت في منتصف سبورتها
«شوكولاتة Her»
عادت وجابت غرفتها وكأنها تلاحق أفكارا لا تراها وبيدها قلم رصاص، كلما التقطت فكرة ركضت وكتبتها قبل أن تطير، كتبت عشرة أفكار كان مصيرها سلة المهملات المجاورة لمكتبها ثم يأست فقررت اعتماد آخر ثلاثة ومحاولة التعديل عليهم، وصلت لفكرة مبدئية فأمسكت هاتفها وفتحت رسائل الواتس آب بينها وبين ياسين وسجلت؟
- «أنا وصلت لفكرة.... فكرة مبدئية... المهم أبعتهالك واتس ولا... أنت موجود بكرة في الوكالة؟ طيب شوف ورد عليا»
رأت علامتي الصواب بالأزرق ثم المثلث الرمادي الملحق بتسجيلها وقد تلون ففهمت أنه سمع فظلت تطرق قدمها اليسرى بالأرض ما إن رأت كلمة typing....
حتى جاءتها رسالته

- «تعالي الوكالة بكرة»
- «ماشي»
انتظرت رسائل أخرى لكن مر الوقت حتى تيقنت ألا جديد ينتظره، فزفرت وأغلقت هاتفها وعادت لخزانة ملابسها التي لا تحوي غير الأبيض والأسود عدا بعض القطع البسيطة المختلفة التي اشترتها والدتها وقلما اضطرت رقية لارتدائها؛ إذ أنها تشعر بالراحة كلما بدت رسمية في ملابس فضفاضة وأحذية رياضية وهيئة بسيطة لا توحي لأحد أنها ابنة «كامل عبد الناصف» أحد أكبر المصدرين والمستوردين للمواد الغذائية.
اختارت بنطالا أبيض وسويت شيرت أسود، وجمعت شعرها وخرجت، ذهبت للهايبر الماركت القريب من بيتها سيرا على أقدامها، وأخذت عربة تسوق وجرتها أمامها، اشترت مقرمشات وفشار وحلوى وعصائر وشوكولاتة ثم عادت لغرفتها وافترشت سريرها بما جلبت واختارت من قائمة أفلامها فيلم.. «It’s a mad mad mad mad world»
ورغم كونه كوميديا إلا أنها لم تضحك، وعند نهايته اضطرت لفتح هاتفها ونظرت بساعته فكانت الساعة لاتزال السابعة مساءً باليوم الأول لسفر والديها، ولا رسائل بالواتس آب، بينما بالماسنجر رسالة واحدة من والدتها مرسلة عصرا تطمئنها على وصولهما وتسألها إن كانت تصالحت مع ياسين أو لا.
فكتبت لها
- «متقلقيش كله تمام»
فردت: طيب تمام.
ثم تابعت: خلي بالك من نفسك يا روكا وأي حاجة تعوزيها قولي لأم زينة تعملهالك وأنا هاكلمك كل يوم أطمن عليكِ.
لم تجد عندها طاقة لترد على رسالة والدتها فاكتفت بقراءتها ووضعت هاتفها على الكومود المجاور لسريرها وتمددت تطالع فراغا من كثرة ما اعتادته أصبح وحده رفيقها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصباح يومها التالي بدلت ملابسها بما اعتادت ونزلت للمطبخ، طلبت من أم زينة أن تعد لها فطورها وقهوتها وجلست على طاولة المطبخ تأكل وهي تتابع التلفاز الموضوع في خزانة فارغة. تابعت الإعلانات باهتمام بالتبادل مع تناولها للأكل حتى علت موسيقى تشيكوفيسكي
فهبت واقفة تحدق بالشاشة
(الزبادي مش بس للهضم الزبادي لأقوى عضم)
ثم ذيل الإعلان باسم «ضياء سالم»
دبت قدمها بالأرض ثم ضربت الطاولة بيدها وهرولت فنادتها أم زينة قلقة لكنها لم تسمعها حتى وصلت لسيارتها، كانت تغلي من الغضب لدرجة أنها ضاعفت من السرعة التي اعتادت القيادة بها وظلت تسب وتتوعد.
احترق صدرها لكونها كانت في طريقها للوكالة تحمل أفكارها لتسرق، ضربت المقود بيدها وظلت تهتف: غبية.. أنتِ غبية يا رقية.
حتى وصلت، فصفت سيارتها داخل الساحة مقابلة مبنى الوكالة وركضت حتى وصلت لحجرة ياسين فدفعت بابها ودخلت فجأة فوجدت ياسين يقول بهدوء: اهي رقية جت اهي مش قولتلكم إنها جاية.

ضربت طاولة الاجتماعات بكلتا يديها وهتفت فيه أمام بقية زملائها: أنت ازاي تسمح لنفسك وحتة واحد بيشتغل عندك أنكم تسرقوا شغلي وتتسبوه لنفسكم؟ ازاي تعمل معايا كدا؟
وقف هادي وهتف فيها محتدا: كنتِ عايزنا نعملك إيه بعد ما سيبتينا ومشيتي مش فاهم؟
- هادي، متدخلش أنت.
استوقفه ياسين، ثم نظر لهم وقال: نكمل بعدين.
- الشغل اللي في إيدينا أهم من ....
- تالين من فضلك، قلت اتفضلوا دلوقتي.
منحوها نظراتهم شزرا وأغلقوا الباب خلفهم ووقفوا يستمعون خلفه، أمسكت رقية بشيء من على مكتب ياسين وأرادت تهشيمه لكنه أمسك بيديها وزعق فيها: ممكن تهدي بقى.
دفعت يديه عنها وزعقت: أنت ازاي سمحت بكدا؟ ازاي قبلت إن ضياء يعمل فيا كدا؟ بياخد مجهودي وينسبه لنفسه، ليه؟
- قولتلك اهدي.
- مش هاهدا، والإعلان ده هتسحبه وهتوقفه فاهم ولا لا؟
- لا.
ابتسموا بتشفٍّ وهمست مايسة: أحسن.
بينما جذب هو ذراعيها وقال: ده شغل، يعني مصالح ناس، مش هتتعطل ولا هتمشي على مزاج سيادتك.
- ده آخر كلام عندك؟
هدأت نبرة صوته وقال محاولا امتصاص غضبها: خلينا نركز في شغلنا أحسن، وبعدين نجاح الوكالة جزء من نجاحك يا رقية.
ثم اقترب منها حتى أن بروده لفح غضبها وسأل مبتسما: اللي فات خلاص فات يا رقية خلينا في الإعلان الجاي، ها قوليلي بقى إيه تصورك لإعلان الشوكولاتة الجديد؟
دفعته بعيدا عنها مشمئزة، صدم من طريقتها، فهتف فيها:
- رقية يا رقية.
بينما هي هرولت ودفعت باب غرفته لتخرج، فزعت تالين حين رأت رقية تفتح الباب فجأة، فدفعتها رقية لتمر فسبتها تالين لكنها لم تبالِ بالرد عليه كونها أسرعت تنادي من لم يظهر بينهم: «ضياء ضياء»
- مجاش النهاردة يا ست رقية.
رد عليها عم سعيد وعيناه تشفق على حالها، فهتفت رقية: معلش تلاقيه مشغول بسرقة مجهود ناس تانية، ما اللي بيسرق بس هو اللي بيعرف يشتغل كويس.
- أنا مسمحلكيش تغلطي في ضياء.
- عنك ما سمحت.
تركتهم وغادرت الوكالة عائدة لسيارتها وما إن استقرت على مقعد القيادة حتى دفنت وجهها في المقود وقاومت دموعها.
تعرف ما يقال عنها بعد خروجها، بل كثيرا ما تسمعه متعمدا منهم في حضورها، توالت دمعتان فجاهدت نفسها ألا تفعل.

يقسمون أنها ستعود ويعلم ياسين أنها حنجرة فارغة وأنه لو احتوى غضبها ستَطيعه وتصمت، واللعنة على الوحدة حين تدفع أصحابها ليظلوا بجوار أناس لا يستحقون بقاءهم خشية ألا يكونوا بمفردهم..

وهل بوجودهم يسمى السُم صحبة؟

أدارت سيارتها عائدة بخيبتها، تجمعت الدموع بعينيها فلم تستطع قمعها فحررتها.

علا رنين هاتفها فظهر اسم ضياء على شاشته، فمحت دموعها وردت بنبرة كستها قوة واهية: عايز إيه؟

أتاها زعيقه هادرًا: بقى بعد كل اللي عملتيه ليكي عين تيجي الوكالة وتغلطي فيا؟

- أنا مغلطتش.. دي حقيقتك بس هي كده الحقيقة بتضايق وتزعل.

- والله، وأنتِ؟ ولا أنتِ مش شايفة نفسك؟ حتة مخرجة مبتدئة بتهبد وهي لا فاهمة ولا حتى بتحاول تتعلم، ولولا خطيبها مكنش حد شغلها.

- اخرس واحترم نفسك.

- ليه؟ مش عايزة تسمعي الحقيقة.

- منك أنت متلزمنيش.

- لا يا أستاذة، هتسمعيني وهتسمعيني كويس، تحبي أبدأ من عند مين؟ من عند ياسين اللي بيقولنا دايما خدوها على قد عقلها وسايسوها عشان الشغل يمشي، ولا تالين اللي بتعدل دايما على ذوقك اللي يقرف ولا .....

- كفاية .... كفاية ... خلاص اديني ماشية وهاسيبهالكم، اعملوا شغلكم زي ما تحبوا واعمـــ .....

- «حـــــــــــــــــــاسباااااااااااااااااااااي»

صرخت وحاولت تفادي طفل صغير ظهر من العدم لكن سيارتها أبت فدفعت الصغير بقوة وعلا صوت مكابحها حين انسلت من أسفل قدميها فاندفعت نحو الرصيف وارتطمت وتوقف صوت كل شيء إلا حوقلة من اجتمعوا حول الصغير وسيارتها.

توقف قلب ضياء فزعا ثم قال بدأ يزعق: ألو ألو رقية، رقية

- «رقيـــــــــة»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

بحث بالوكالة عن ياسين فلم يجده، فخرج ركضا وقد خشى أن يغلق المكالمة بينهما، أوقف أول سيارة أجرة قابلته ولم يجد ما يقوله لسائقها لكنه طلب منه التحرك، انقبض صدره وهو يتخيل حطام سيارتها الفيتارا ووجهها مخضب بدمها، أعاد نداءه خائفا: يا رقية يا رقية
فأتاه صوتها واهنا، وهي تحاول تبين ما فعلته، فتحت باب سيارتها وانهارت ما إن رأت صغيرا غارقا بدمائه وسمعت أصوات نداء الناس من حولها دون تتبين من صاحبها تهتف:
- «إسعاااااااف»
- في إيه يا رقية؟
- أنا خبطت ولد بعربيتي.
بين نشيج ونحيب تتابع صوت بكائها وازداد، ولم تقو على أي رد فعل.
- أنتِ فين بالظبط.
- رمسيس، جنب محطة رمسيس.
- طيب متتحركيش من عندك أنا جايلك.
عند وصوله لم ير رقية، بل سيارتها؛ إذ كان كثيرون متجمهرين أمامها، شق طريقه وسط الزحام حتى وجدها تجلس على مقدمة رصيف وتبكي دون قدرة أحد على إيقافها، لم يستطع أحد لا لومها ومواساتها، فانهيارها فاق تدخلهم، هرول ناحيتها وجاورها ولم يعرف بأي كلمات يبدأ لكنه زعق في أحد الواقفين قائلا: إزازة ماية يا جماعة.
جلب أحدهم واحدة ففتحها ومنحها لرقية وقال: اشربي واهدي وهنشوف اللي حصل دلوقتي.
- أنا موت ولد صغير.
- ماماتش يا ستي ماماتش.
قالها كثر، فرددها معهم ثم علا هتاف أحدهم: الإسعاف جت.
حمل المسعفون الصغير وأدخلوه السيارة، فنظر ضياء لرقية وقال: قومي معايا طيب، احنا لازم نروح المستشفى، أحست بخط دماء فوق خدها فمسحته بيدها فأدركت من الأحمر الذي خضب يديها أنها نزفت نتيجة ارتطام رأسها بالمقود.
تماسكت ووقفت واستندت على سيارتها فبادر ضياء قائلا: لو مش هتقدري تسوقي هاسوق أنا.
اتجهت لتجلس على المقعد المجاور لمقعد القيادة دون أن تعلق بكلمة وقد أسندت رأسها على ظهر مقعدها وظلت ساهمة بينما انطلق ضياء للمشفى.
- «مجهول»
كانت الكلمة التي اضطر ضياء لكتابتها باستمارة ملء بيانات المشفى بعدما أثبت أن الطفل قد قَدُم بحادث سير، أقر الأطباء بالطوارئ ضرورة دخول الصغير للعمليات بينما أبلغ الطبيب المناوب الشرطة كإجراء روتيني لإخلاء مسئوليتهم.
أما رقية فجرح رأسها كان بحاجة لتعقيم وضمادة، وحين انتهت منه رافقها ضياء ليصعدا سويا للطابق الثاني حيث العمليات ووقفا كل منهما مستندا على حائط متقابلين دون أي تعقيب على كل ما

كان حتى مرت ساعة كاملة بعدها خرج الطبيب فركضت رقية نحوه ومن خلفها ضياء وسألت متلهفة: الولد كويس؟
- كويس متخافوش، أنتم اللي جيتوا مع الحادثة؟
- أيوة.
- طيب الولد الحمد لله كويس هو كان عنده نزيف داخلي ووقف وهيطلع دلوقتي على العناية المركزة.
تنفست الصعداء ما إن أدركت نجاة الطفل وظلت تتمتم: الحمد لله، الحمد لله.
ظن ضياء أنها ستهدأ لكنها نكست رأسها وبكت، رأى انهيارها فشعر باشمئزازه من نفسه وقد بدت له هشاشتها وهي متواجدة في مأزق بمفردها، فوقف بالقرب منها وتنحنح ثم سألها: كلمتي ياسين؟
- لا.
بحثت عن هاتفها فوجدته بجيب جاكتها فمسحت دموعها بكفيها وهاتفت ياسين فجاءها رنين متواصل للاتصال لكن دون إجابة وبعد ثلاث محاولات توقفت دون أن تعلق ووضعت هاتفها بجيبها.
فأخرج ضياء هاتفه وحاول الاتصال بياسين ومع يقينه أنه لن يرد توقف عن المحاولة ووضع هاتفه في جيب بنطاله الجينز فباغتته رقية معلقة: مش هيرد دلوقتي.
يعرفان ذلك؛ فياسين كلما حل شجار بالوكالة ينحي نفسه بعيدا كي يضمن ألا يتأثر عملهم، لذا فهاتفه إما مغلق أو هو لا يجيب اتصالاته.
توتر ضياء ما إن زاد بكاؤها فسألها: طيب هتعملي إيه دلوقتي؟
عجزت عن التفكير كونها وحيدة وقالت قلقة: مش عارفة، بابا وماما مسافرين دبي وأنا لوحدي، بس هاكلمهم.
لمحا ضابطا أتى ناحيتهما برفقة الطبيب، اصفر وجهها وظلت تفرك يديها ببعضها فقال ضياء كي يطمئنها: متقلقيش لازم يتفتح محضر وتتثبت الوقعة عشان كمان أهل الولد زمانهم بيدوروا عليه دلوقتي.
وقفت ما إن باتا أمامهما واستجمعت هدوءها، أخذ الضابط بياناتها الشخصية وسردت هي تفاصيل ما حدث، قالت إنها رأته فجأة يركض أمام سيارتها وحاولت تفاديه ولم تستطع، لم يكن بالمشفى أي شهود على الحادثة بل ولم يكن هناك أحد يعرف عن الطفل أو هويته.
علم من الطبيب أن الطفل سيبقى بالعناية المركزة أربعة أيام قبل خروجه لغرفة عادية، فأتم المحضر بتوقيع رقية على كلامها وقال أنه سيعود عندما تسمح حالة الطفل باستجوابه.
انصرف الضابط برفقة الطبيب فتنفست ووضعت يدها على صدرها وحاولت الهدوء بينما ضياء علق: أنا شايف قعدتنا في المستشفى النهاردة مش هتفيدنا، روحي ارتاحي وبكرة نيجي نطمن على الولد حتى نكون لقينا أهله
- مش هتكون في مسئولية لو مشينا وسيبناه؟
- مظنش طالما الولد حالته مستقرة.
انتابها القلق من كلامه ولم تثق بتأكيده فسألت: متأكد أن مفيش حاجة هتحصل؟
- ربنا يستر.
زادت إجابته قلقها فظلت بمكانها تفرك يديها علها تهدأ ثم قالت: أنا خايفة قوي على الولد، زمان مامته منهارة، وعيلته كلها، وأنا السبب في كل ده.

طوقته دموعها وكلماتها فزاد شعوره بالأسف والضيق، ولازمته الشفقة عليها فقال: بعد كل اللي اتعمل معاكِ لو في حد عليه مسئولية يبقى احنا مش أنتِ.
قالها سهوا وكأنه يعترف بما يئن به ضميره ولم يسبق أن اتضح، ثم تراجع وصمت، ذكرتها جملته بشجارهما فقالت: أنا هاستنى شوية، تقدر تستأذن
تجاوز شعوره بالضيق منها ومن نفسه وسألها: مش محتاجة حاجة؟
- لا.
- طيب لو احتاجتي أي حاجة كلميني.
اكتفت بإيماءة كإجابة وغادر هو المشفى، تاهت بالمشفى العام وهي تحاول أن تجد شخصا قد تستفسر منه على تفاصيل الحالة فلم تجد، فعادت تسأل إحدى الممرضات بالطوارئ عن امكانية مرافقتها للطفل حتى لا يُترك وحيدا لكنها علمت أن زيارات العناية بمواعيد محددة وأن تواجدها بالمشفى بخلاف تلك المواعيد ممنوع، فخرجت من المشفى وعادت لسيارتها وجلست خلف مقودها ولكنها أول ما دارت أخافتها فأوقفتها وأغلقتها واستعانت بـ«أوبر» عائدة لفيلتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح اليوم التالي للحادث، مر ضياء بالوكالة، كانوا بالاستراحة عندما ظهر، فأشار له هادي كي يرافقهم وبعينيهم تجلى فضولهم لسؤاله عما حدث بينه وبين رقية، لمح هادي لكنه باغتهم سائلا: ياسين هنا؟
- في مكتبه.
تركهم واتجه لمكتب ياسين طرق بابه وفتحه قبل أن يأذن له بالدخول، انتفضت تالين وابتعدت عن ياسين وقالت: طيب هاكمل بقية التعديلات وهارجعلك.
ثم حيّت ضياء وخرجت فأغلق ضياء الباب خلفها وجلس قبالة مكتبه وسأله: أنت كلمت رقية امبارح؟
- أكيد طبعا كلمتها.
- وإيه الأخبار.
- متقلقش الموضوع هيعدي، الإعلان الجاي تتراضى وخلاص، المهم دلوقتي أنا مش عايز تأجيل في اللي جاي، أنا قولت تالين تعملي كام تصميم مبدئي، وهاقول لرقية تبعتلي النهاردة الأفكار اللي جهزتها وبكرة أو بعده بالكتير نعمل أول meeting.
استغرب ضياء فعلق: إيه كل ده؟ أنا باسألك على الحادثة، أنت متعرفش إن رقية عملت حادثة امبارح؟
ارتاب فسأل: حادثة، حادثة إيه، هي رقية حصلها حاجة؟
وقف قبالته وأجابه: لا.. رقية كويسة، هي خبطت ولد وهي خارجة من الوكالة امبارح....
لم يدعه يكمل كلامه وأمسك ياسين هاتفه واتصل برقية، كانت بطريقها للمشفى عندما وجدت اتصاله، ترددت في إجابته ثم ردت وقبل أن يسألها حتى عن حالها سمعته يزعق فيها: كل يوم مصيبة، طبعا وأنتِ فارق معاكي حاجة.
- ممكن تهدى وتسمعني.
- أسمع إيه، أنتِ فين دلوقتي؟
- رايحة المستشفى.
- طيب خليكِ عندك لحد ما أجيلك.

أنهى المكالمة وسأل ضياء عن المشفى فأجابه ثم قرر مرافقته، جمعتهما سيارة ياسين وقد لاحظ ضياء استياءه وهو يسب تدليل رقية من آن لآخر.
وصلا المشفى وصعدا للطابق الخاص بالعناية المركزة وأول ما رأى ياسين رقية هتف: عاجبك كل المصايب دي؟ يوم عطلة عن شغلي عشان مش عاجبك الشغل، ويوم عشان اتخانقتي مع الـcrew، ويوم عاملة حادثة وجيبالنا كارثة.
توقع ضياء انهيارها لكنه تفاجأ بها تزعق بياسين قائلة: هو ده كل اللي فارق معاك كالعادة، لكن أتصل بيك ألاقيك؟ لا، تيجي تطمن عليا؟ لا، تحاول حتى تسمعني وتفهم إيه اللي حصل؟ ازاي تتنازل وتعمل كده.
- أنتِ كمان مش حاسة بغلطك!
وحِدَّتهما فرضت على ضياء التدخل فقال: يا جماعة بالراحة، احنا في مستشفى، مينفعش اللي بتعملوه ده.
شزرته رقية؛ إذ بدا واضحا أنه من أبلغ ياسين، ثم نظرت لياسين وقالت: أنا مطلبتش منك تتعطل وتيجي، ولا طلبت منك تكون معايا، طول عمري لوحدي وباعرف أتصرف كويس، فلو شايف إن وجودك عطلة ليك، تقدر تمشي.
زفر ياسين ثم رمقها بغيظ ثم قرر أن ينصرف، ولم تستغرب تصرفه غير أنها تمنت أن يخالف توقعاتها منه.
جلست على مقعد كان بالرواق المقابل لغرفة العناية ولم تنتبه لبقاء ضياء، للحظة ظن أن ياسين يمزح لكنه تأكد عندما سار حتى آخر الرواق ونزل السلالم.
هرول خلفه وهو يناديه وعندما لحق به قال: أنت هتسيب رقية لوحدها؟ دي قالت امبارح إن باباها ومامتها سافروا، بعدين بالراحة شوية يا أخي، هو اللي اتعمل معاها ده مكنش يضايق؟
- بجد؟ على أساس إنك مكونتش موافق؟
زاد ضيقه من نفسه فلم يعلق، بينما ياسين واصل طريقه فاستوقفه قائلا: يا ياسين، استنى مينفعش نمشي ونسيبها.
- هي مش عاملة فيها جدعة، خلاص سيبها.
علا رنين هاتفه فابتعد وأكمل طريقه خارجا من المشفى بينما ضياء ظل بمكانه، وبعد عدة ثواني تيقن أن رقية بمفردها اضطر للصعود لعله يتفادى شعوره بالذنب نحوها، وجدها ساهمة لم تكن بانهيار الأمس؛ بل النقيض وكأنها شخص آخر، وقف قبالتها وتنحنح وقال: هي أخبار الولد إيه النهاردة؟
استغربت عودته، وردت باقتضاب: كويس.
جلس بجوارها بعدما ترك بينهما مقعدين ثم قال: أنا آسف على اللي حصل.
هازئة استفسرت سائلة: آسف على إيه بالظبط؟
شعر أن رصيده من المواقف السخيفة التي جمعتهما على مدار عام بالوكالة عملا فيه معا لم تكن بحاجة ليكللها بمشاهدته لمشاجرة أكد فيها ياسين لامبالاته برقية، فزاد شعوره بالضيق ولم يجد ما يقوله غير أن يجد شخصا يسأله عن الطفل، لكنه قبل أن يبرح مكانه سمع صراخ طفل يكرر نداءه على والدته:
- «ماااااما»
خرجت الممرضة من غرفة العناية وركضت تبحث عن الطبيب وعادت معه وهرولا للداخل.

- هو إيه اللي حصل؟
انتفضت رقية وسألت خائفة، فأجابها ضياء وقد انتقلت عدوى الخوف بينهما: هنعرف دلوقتي.
جاب ضياء الرواق عل السير يخفف من توتره بينما ظلت رقية بمكانها واقفة تتطلع لباب العناية، ترجو فتحه كي يطمئن قلبها.
بعد نصف ساعة انفتح فركضا ناحية الطبيب وقبل أن يسألاه قال: هو خايف، عايز مامته وباباه، ومخضوض إنه في مستشفى.
- طيب احنا نقدر نعمل إيه؟
- للأسف، ولا حاجة، غير إننا نلاقي مامته، مظنش فيه حاجة تانية.
نظرا لبعضهما البعض دون أن يقولا شيئا، فتابع الطبيب: هو نايم دلوقتي، اطمنوا.
- طيب احنا نقدر نشوفه؟ حتى لو لخمس دقايق مش أكتر.
- تمام، خمس دقايق مش أكتر من كده.
سبق ضياء رقية ودخل، بينما رقية ترددت وبعد دقيقة دفعت باب العناية ودخلت، كان سريره المواجه للباب عرفت من صوت ضياء مع الممرضة فتنحنح وفتح الستارة التي كانت تفصله عن بقية المرضى بالعناية.
وقفا حول سريره فوجدت ضياء يحاول التقاط صورة له، فسألته: هتنفع وهو نايم؟
- أنا هاظبطها.
وضع هاتفه بجيبه ثم وقف عند رأسه فمسح عليها واستغرب، وفسرت الممرضة استغرابه حين قالت وهي تتأمل الصغير وترمقه: ما شاء الله شبه حضرتك قوي.
استوقفته الجملة ففرضت عليه تأمله، أدرك أنها ظنته والده ورغم هذا لم يوضح سوء تفاهمها، نظر للطفل وابتسم؛ كلاهما ببشرة تميل للسمرة، وعيناهما ذات أهداب طويلة وكثيفة، لكنه لا يعرف إن كان لكليهما نفس العينين عسلية اللون أم لا، لكنهما مشتركان في نفس الأنف المتوسطة والشعر الأسود المائل قليلا للبني.
أمسكت رقية كف الصغير بين يديها وطفرت الدموع من عينيها رغم ابتسامة ملأت ثغرها وقالت آسفة: أنا .... آسفة، آسفة والله، حقيقي مكنش قصدي
ربتت على كتفها الممرضة وقالت: متقلقيش، إن شاء الله هيكون كويس، ادعيله.
بعد خروجهما جمعهما الرواق والصمت والشرود، وغَدّ لايعرفان خطواتهما التالية فيه، فسألت رقية وكأنها تسأل الفراغ: هو أنا المفروض أعمل إيه؟
أجابها وكأنه يحدث حاله: مش عارف... ممكن نستنى لما يتنقل غرفة ويجي الظابط والولد يتكلم
- ده بكرة؟!
- لا، غالبا لسه ....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت باليوم التالي للمشفى عند الحادية عشرة، وعلا حاجبيها الدهشة حين وصلت المشفى قرابة الحادية عشرة صباحا فوجدت ضياء.
كان يقف برفقة إحدى الممرضات ممسكا بيده ورقة تشرح له ما كُتب فيها، فهرعت ناحيتهما وسألت مضطربة: هو الولد جراله حاجة؟
أجابتها الممرضة: الولد بخير الحمد لله.

- متقلقيش يا رقية، أنا اطمنت على الولد والحمد لله كويس.
- بصي يا مدام هو هينزل بعد بكرة الصبح أوضة، فأنتم تجهزوا هدومه وغياراته، وتجيبوهالي.
توترت رقية من كلام الممرضة فنظرت لضياء فعلق: تمام متقلقيش، أي حاجة محتاجها الولد قوليلنا عليها على طول.
- ربنا يطمنكم عليه.
قالتها وانصرفت وبقيت رقية ساهمة تخشى طرح أي سؤال كي لا تصدمها إجابته، فقال ضياء وهو يشير للورقة بيده: محتاجين نجيب الحاجات اللي طلبتها ومحتاجين نعدي على القسم نشوف وصلوا لحاجة بخصوص أهل الولد ولا لا.
- هو لسه مفيش أخبار عن أهله؟
- لسه.
سارا متجاورين حتى خرجا من المشفى وعند بابها قال: القسم قريب ممكن نتمشى لحد عنده.
أكملا سيرهما فقالت: أنا عربيتي لسه هنا من يوم الحادثة.
- ليه كده؟
- خوفت أسوقها.
استغرب من كلامها بينما هي أشارت للشارع المصفوفة فيه سيارتها وقالت: تعالى ناخدها عشان نجيب طلبات المستشفى بالمرة.
وافقها حتى وصلا لسيارتها فطلبت: ممكن تسوق مكاني يا ضياء؟
- حاضر.
جمعتهما سيارتها فانطلقا باتجاه القسم،رآها شاردة ولم تقل كلمة من لحظة ركوبهما السيارة فقال: إن شاء الله الموضوع يعدي على خير.
تنهدت وحاولت مواراة قلقها وسألته: هو احنا ممكن منوصلش لأهله؟
- أعتقد مش صعب دلوقتي، يعني لو صورة الولد نزلت على الفيس بوك واتعملها شير هنقدر نوصل لأهله إن شاء الله.
كانت في أمس الحاجة لمن يطمئنها فهدأت ما إن شعرت أن الأمر بسيط من كلامه، انتظر تعليقها على كلامها فلم تقل شيئا فتابع: أنا صورت الولد صورة، على حد علمي ممكن تتعمل نشرة بصورة الطفل وتتوزع على الأقسام فلو أهله بلغوا يعرفوا يوصلوله، بس مش عارف ده بيتعمل فعلا ولا لا؟
وصلا للقسم ثم قابلا الضابط المسئول عن الحادث، لم يكن هناك جديد بعد، فترك ضياء صورة فوتوغرافية للطفل مع الضابط تم إرفاقها بالمحضر ثم غادرا.
عادا للسيارة وتجاورا، فظلت طول الطريق صامتة مكتفية بالمشاهدة عبر النافذة، تأمل هيئتها للحظة إذ فاض حزنها على كل قطع ملابسها ليكون الأسود ملكها.
بنطالها وقميصها وبالطو صوفي ونظارة ابتلعت ملامحها وأخفت حمرة عينيها لكنها لم تداري خوفها وقد وارت ضمادة جبينها بموج شعرها.
حدد وجهته وسط البلد، فسارا بسيارتها نحو محل يعرفه من أحد أصدقائه، جابا زواياه يبحثان عن المقاسات المناسبة والقطع المناسبة.. حتى سحبت رقية قطعة وسألته: إيه رأيك؟
ابتسم وقال: برضو أسود.

وضعتها ولم تحاول اختيار أي قطع أخرى حتى اختار هو (سويت شيرت) برتقالي مطعم بزيتوني، وقميص كارو ذا مربعات صغيرة بلونين زيتوني وأصفر وسألها: إيه رأيك؟
- السويت شيرت ده حلو قوي بس مش حساه مع القميص.
اختارت قميصا آخر سادة بنفس درجة الزيتوني الممزوجة مع البرتقالي فكان أفضل، وحين وافقها ضياء ابتسمت، وعلقت: بس هنحتاج مقاس أكبر.
- معاكي حق.
استوقفتها جملته فاندهشت؛ كانت المرة الأولى التي تسمع فيها تأييدا لرأي قالته، حتى أنها كادت تسأل لتتأكد من كونه يراها على صواب لكنها تراجعت.
اشتريا بنطالا بيج توافق مع القطعتين، ترنجا رياضيا برتقاليا مبطن بالفراء، وحذاءً رياضيا، وسراويل داخلية، وجوارب صوفية تقيه شتاء يناير.
وعادا للمشفى، حمل ضياء الأكياس وصعد بها ليعطيها للممرضة، ثم عرض على رقية في عودته أن يقلها لبيتها لكنها طلبت منه أن يصف سيارتها بجوار المشفى علهم قد يحتاجونها بالأيام القادمة برفقة ذلك الصغير الذي اقتحم حياتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت خمسة أيام على الحادث، لم تذهب بذلك اليوم للمشفى، بقيت بغرفتها، وضاع وقتها بين الطعام والأفلام حتى ملت، فكرت في مهاتفة ضياء أكثر من مرة لكنها تراجعت ومع نهاية يومها رجت النوم لكن القلق غلبها.
بصباح اليوم الذي تلاه جاءها اتصال من ضياء أخبرها أن الطفل قد غادر العناية لغرفة، فلم تتردد في حسم أمرها وتبديل ملابسها والذهاب للمشفى.
كان ضياء ينتظرها أمام المشفى، رآها تغادر سيارة «أوبر» بأسودها الذي اعتاده ونظارتها التي تبتلع وجهها، لمحته فحيته بيدها وخطت نحوه، كعادته ارتدى بنطالا جينز وتي تيشرت وقميص كاروهات، دوما ما يحب أن يجمع الثلاثة معا، صيفا أو شتاءً، لا يختلف إلا تبادل القطني بالصوفي، واليوم جمع بين مفضليه الأصفر والأزرق، تجاورا وسارا دون كلمات أو أسئلة وعند وصولهما تفاجآ بالضابط بانتظارهما، فسأله ضياء: في جديد
- أيوة، أنا اتكلمت مع محمد و..
- «محمد».
هتفا باسم الصغير سويا ثم تابع الضابط: أيوة وقالي اسم والده بالكامل وده بإذن الله هيفيدنا وممكن بالكتير بكرة نكون وصلنا له.
- طيب كويس الحمد لله.
بدت حماسة واضحة عليهما حتى أنه أخرج هاتفه وقال: هات أسماءهم يمكن نقدر نوصل لأكونتاتهم على الفيس بوك، ممكن؟
- قالنا إن مامته اسمها سمية بس مش عارف اسمها بالكامل ووالده اسمه سليم ؛ سليم شامل بركة.
دوّن ضياء الاسمين على هاتفه ثم التفت للطبيب وسأله: الولد عامل ايه النهاردة يا دكتور؟
- هو اطمن لما قولناله إننا هنكلم باباه ومامته وهييجوا ياخدوه، وبالنسبة لحالته فالحمد لله هو كويس جدا.
- طيب الحمد لله.

- تحبوا تطمنوا عليه؟
- لا بلاش.
أجابته رقية ثم تابعت: خلينا ندخل مع باباه ومامته أحسن بدل ما يخاف مننا خصوصا إنه مش عارفنا.
- معاكِ حق، خلينا أحسن لما نلاقي باباه ومامته.
مرتان بأسبوع واحد، ابتسمت ثم شردت وكأنها انتبهت؛ مر أسبوع، سيكون يومه السابع هو الغد، أسبوع ولا أثر لأسرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

باليومين التاليين لم تفكر في الذهاب للمشفى وبقيت بفيلتها، لم تكن بعد قد استوعبت قرار تركها العمل بالوكالة بشكل نهائي، فكانت كلما هاتفها ياسين للسؤال عن تصورها للإعلان الجديد قالت بحسم ودون مواربة أنها لن ترسل شيئا ولن تعود للوكالة مرة ثانية، ولأن كل اتصال أصبح يعني مشاجرة كانت تتفادى الرد على أغلب اتصالاته.
كانت تعلم أن رهانه سيكون على ضجرها من الجلوس بالمنزل، فحاولت أن تفكر في عمل شيء يشغلها حتى لا يعاود ابتزازها.كتبت بعدة أوراق أفكارا شتى لأفكار قصيرة، ثم فكرت في العمل على تحويل أي كتاب لسيناريو ولو من باب التدريب، وفي خضم سعيها ذكرها هاتفها حين جاءها اتصال من ضياء، أن هناك طفلا لم يجد بعد أسرته هي سبب شتاته.
أخبرها أن الضابط المكلف بالبحث عنهما هاتفه وطالبه بمجيئهما، تتابعت دقات قلبها برجفة وسألته: هو حصل حاجة؟
- مش عارف، هو قالي لما نوصل هنعرف.
بدلت ملابسها ولحقت به، وعندما جلسا أمام مكتب الضابط أخبرهما: المستشفى بلغتنا إن محمد خارج بعد بكرة.
تجهمت رقية وسألته: قبل ما نلاقي باباه ومامته؟
- ما عشان كده أنا طلبت منكم تيجوا، احنا لسه بندور على أهل محمد والمواضيع دي مش دايما بتكون سهلة، ساعات بنلاقي الأهل بسهولة خلال أيام، وممكن تعدي شهور لحد ما نقدر نوصلهم، وساعتها الطفل بيروح دار رعاية لحد ما نلاقي أهله.
صدمهما ما سمعاه فبادر ضياء سائلا: ومفيش حاجة تانية ممكن نعملها؟
- الإجراء البديل إن محمد يفضل في مسئولية الشخص اللي عمل الحادثة.
- أنا؟
صدمت رقية ولم تعلق، فتابع الضابط: أنا عارف إن دي مسئولية عليكِ يا أستاذة رقية، خصوصا واحنا مش عارفين احنا ممكن نلاقي أهله امتى؟
تبادل رقية وضياء النظرات وارتبكا، فركت رقية يدها وقالت: صعب قوي إن الولد يكون معايا.
- أنا عارف.
ازداد ضيق ضياء وزفر ثم علق: طيب مفيش أي بدايل تانية ممكن تكون مناسبة؟
- والله لو حضرتك تقدر، لو ظروفك سمحت في حال مش هينفع مع أستاذة رقية، ممكن..
- أنا كمان مظنش هاقدر.
- تمام، على كل حال أنتم ساعدتوا الولد على قد ما قدرتوا، وقانونا مش مطلوب منكم حاجة أكتر من اللي عملتوها.

همت رقية واقفة وقالت: أنا حقيقي آسفة جدا.
- مفيش داعي للاعتذار يا أستاذة، وبعدين أنتم ممكن تتابعوا محمد في الدار لحد ما يلاقي أهله، احنا هنستلمه من المستشفى ونسلمه للدار، وربنا يسهل ونلاقي أهله بسرعة.
يأسا من إيجاد حلول بديلة فاكتفيا بتحية الضابط والمغادرة، خرجا ساهمين يتلقفهما الضيق فبادر ضياء قائلا: أعتقد كده موضوع محمد خلص.
- كان نفسي نلاقي والده ووالدته.
- معلش الموضوع شكله مش هيكون سهل.
- للأسف.
توقفا عن السير للحظة؛ إذ لم يكن ضياء يمشي بنفس طريقها فقالت: أنا هامشي.
أومأ رأسه إيجابا وسأل: طيب مش محتاجة حاجة؟
- لا.
تردد في سؤالها ثم حسم أمره وسأله: أنتِ صحيح سيبتي الشغل في الوكالة؟
- أيوة.
وقبل أن يباغتها بأسئلة أخرى شرعت في إنهاء حوارهما قائلة: أشوفك على خير يا ضياء.
فما كان منه إلا تقبل رغبتها وقال: مع السلامة يا رقية.
افترقا، فاستقلت هي أوبر عائدة لفيلتها بينما هو فضل السير قليلا بمحيط رمسيس علّه يخفف من ضيقه، تخبطت مشاعره بين شفقته على صغير لا يعرفه وإقراره بأنه لن يستطيع تحمل مسئوليته، نفض عنه تفكيره به لكنه تذكر الشبه بينهما فابتسم.. لم يكن التشابهة بالشكل؛ بل الظروف نفسها..
«لا أب ولا أم»..
غير أنه لم يكن تائها بل منبوذا، أخمد غضبه حين تصارعت بداخله ذكرى انفصال والديه واستقرار كل منهما بحياة جديدة بدونه، فاغتم ما إن تخيل بكاء محمد وخوفه.. فوقف فجأة وكأن شيئا بداخله ثار على استكماله لسيره، ثم استدار عائدا بخطوات سريعة حتى وصل للقسم وطلب مقابلة الضابط، وبمكتبه وقبل أن يتحدث إليه ضياء باغته هو قائلا: أستاذة رقية لسه ماشية.. كانت هنا ومضت تعهد إنها هتكون المسئولة عن محمد لحد ما يرجع لأهله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

طوال طريق العودة لبيته لم تفارقه ابتسامة عجز عن معرفة سببها، غير أنه سعد لأن رقية اهتمت لأمر محمد، فأمسك هاتفه وكلمها..
جاءه صوتها مرتبكا، ارتباك استشعراه كلاهما، مشاعر اختلطت عجزا عن وصفها، نُسجت من خوف ورضا..
أقلقها أن يلومها أو يؤنبها لكنه قال مشجعا: سبقتيني يا رقية.
- بس أنا خايفة قوي.
- طبيعي دي مسئولية بس أنا هاكون معاكي.
زاد ارتباكها من رده ولم تعلق فناداها: رقية معايا؟
- أيوة.
- سرحتي في إيه؟
- هو احنا وارد منلاقيش أهله.
- مظنش، يمكن بس الموضوع ياخد شوية وقت.
صمتا، ثم سألته قلقة: طيب احنا هنعمل إيه دلوقتي؟
- خلينا نروح لمحمد بكرة ونسيب إجابة السؤال ده لبعدين، أشوفك بكرة؟
- أوكى تصبح على خير.
أمام البناية الوحيدة بشارعهم بمنطقة المعادي القديمة والتي تحوطها قطعة أرض ويلفها سور على مدخله باب حديد، وقف ضياء حتى أنهى مكالمته مع رقية ثم أخرج من جيبه مفتاح الباب البني الحديدي وفتح القفل الموضوع بنهاية السلسلة التي كانت تلتف حول أسياج الباب ثم أغلقه بعدما تأكد من وصد قفله كعادتهم في كل مساء، طالع البناية القديمة فلفه شعور عاد به للوراء خمسة وعشرين عاما..
لأول يوم جاء فيه إلى هنا؛ وكان بعمر السادسة... يومها ودعه والده وقال له أنه سيعيش مع عمته «ماجدة» وزوجها «فؤاد»، ورغم حبه لعمته إلا أنه رأى البناية بطوابقها الثلاثة كبيت أشباح سيعيش فيه دونما والديه، ليلتها بكى كثيرا فحمله فؤاد وخرج به وعادا وبرفقتهما «دراجة»؛ إذ كان يعرف أنه ألح على والده ليجلبها له لكنه نسي وعده في غمرة إجراءات طلاقه من والدته..
بحث بعينيه عن الدراجة الخضراء فوجد مستقرها أسفل الشجرة الوحيدة الراسخة بحديقتهم الجرداء وقد غطاها الزمن بصدأه..
بنفس المكان الذي اعتاد وضعها به دون خوف على ضياعها أو سرقتها..
- «هنا أمان يا ضياء»
قالها فؤاد مرارا وهو يشير للسور الذي يحوط بنايتهم وقد تعشق بقطع الزجاج المتكسر.
خشي أن تؤخره ذكرياته فصعد درجات السلم مسرعا حتى وصل للطابق الثاني وفتح باب شقته بمفتاحه، ثم خلع حذاءه خلف الباب ثم وضعها بخزانة الأحذية بينما أتاه صوت ماجدة وهي تقول: أخيرا يا ضيا.
- معلش يا أم ضيا كان يوم طويل النهاردة.

- طيب غير هدومك عقبال ما أغرف، ده القلقاس اتهرى من كتر التسخين.
- وماله كله من إيدك سكر.
ابتسمت خجلة ولكزته بكتفه وعادت للمطبخ، فاتجه لغرفته وبدل ملابسه لبنطال ترينج أسود وسويت شيرت أصفر، انتقل من ملابس الخروج للبيت بعدما بُهت لونه قليلا وخرج للشرفة، كعادته فؤاد كان جالسا مرتديا روبه الصوفي الرمادي المقلم بالأبيض فوق بيجامته على كرسي من الخوص الأصفر.
بالشرفة مقعدان تتوسطهما منضدة مستديرة من ذات الخوص يعلوها لوح زجاج سميك شفاف اعتاد فؤاد وصفه بـ»حمال القاسية»
- مساءك فل يا حاج فؤاد.
ابتسما وسحب ضياء الكرسي الآخر وجلس قبالته فنظر له فؤاد بتمعن وسأله: مالك؟
- شوية دربكة في الشغل.
- باين عليك، الله يقويك.
حين غمز بعينيه ضحك ضياء، وجاءهما صوت ماجدة من المطبخ تسأله: هتاكل عندك ولا ع السفرة؟
- عندي يا ماما.
فأدركت أن عليها تحضير الصينية البلاستيكية البيضاء ذات رسومات الفاكهة التي في الغالب تجمعهما دون السفرة إن تناولوا الطعام بالشرفة أو بالأنتريه أمام التلفاز.
وضعت طبق القلقاس وأرز بشعرية وصدر الدجاج المحمر، فوجلت حين استرق ضياء قبلة وضعها على خدها فشهقت وقالت: اخس عليك يا ضيا خضتني.
- سلامتك من الخضة يا قلب ضيا.
حمل الصينية عنها وعاد بها للشرفة بينما هي ظلت بالمطبخ، كان يعرف أنها ستعد طبقا من ثلاثة؛ مهلبية البرتقال بالجزر أو عاشوراء التي تصنع حتى دون موسمها أو أرز باللبن، فلياليهم الشتوية ما كانت لتمر دونهم، ففؤاد يحب كل ما هو لين على أسنانه وهي تحب أن تعد لهما كل شيء بيدها.
دفء رزق به ضياء أنساه ما افتقده وقد تصرفوا جميعهم وفق اتفاق ضمني لم توضح بنوده أنهم عائلة من أب وأم وابنهما، ولم يعد أحد يجلب سيرة والده الذي هاجر لكندا واستقر بها ولا والدته التي تزوجت بالفيوم ونسيته.
بعد تناوله غداءه جاءتهما ماجدة تحمل أكواب الشاي بالقرنفل ومعمول بالتمر، رفع ضياء صينيته فوضعت هي صينيتها وتوجه للمطبخ، أفرغ بقايا الأطباق ثم جلاها وأعادها نظيفة بالخزانة فنادته: يا ابني سيب اللي في إيدك وتعالى شايك هيبرد.
- حاضر يا ستي.
حين خرج للصالة وجدها تحمل كوب شايها وقطعتين معمول وجلست على الأريكة المقابلة للتلفاز، ارتدت نظارة القراءة الكبيرة ذات الإطار الأسود وأمسكت بيدها الأخرى قلم رصاص وأجندة انفك غلافها الجلدي عن رزمة أوراقها مطبوع عليها عام ١٩٩٩.
قربت وجهها قليلا من التلفاز كي تتبين المقادير المكتوبة ثم دونتها وعلقت: يا أخويا الخبز المشبع ده عمره ما شبعني.
- عشان بتغمسي بيه عسل وطحينة يا بطاطا.

و»بطاطا» هو اسم تدليلها، ضحك ضياء بل كاد يسعل من فتات المعمول بفمه فنظرت لهما ماجدة نظرة توعد قام على إثرها فؤاد من الشرفة يحمل كوب شايه وما بقى من طبق المعمول وقال: الواحد يقصر الشر ويدخل يسمع الراديو جوه.
- أحسن برضو.
- بقى كده يا بطاطا، طيب.
وبغرفة نومهما التي عمرت من عمر زواجهما؛ سبعة وأربعين عاما، تمدد على سريره الأصفر ذي الظهر المبطن بالقطيفة البني وجلس يسمع سهرة الإذاعة لعبد الحليم حافظ..
مر ضياء بالرواق بين غرفة فؤاد وغرفته فلامس الصوت أذنيه فترك باب غرفته مفتوحا وتمدد على سريره يرشف شايه ويسمع..
«عيني يا عيني يا عيني، عيني عليكي»
«كل القلوب بتدوب بتدوب حواليكي يا عيني»
«إلا أنا.. وحدي أنا.. باشوفك بس بعيون غير عيون الناس وأحبك بكل ما.. في القلب من إحساس»
- يا سيدي.
أربكته وقفة فؤاد عند مدخل غرفته فاعتدل وعلق: الله يسامحك قلبت عليا المواجع.
ورغم أنه قالها مازحا، إلا أن فؤاد تجهم وسأله: أنت لسه بتفكر في الموضوع ده؟
- لا والله، ربنا يسعدها بقى.
- ضياء!
- والله ما في أي حاجة.
قالها وتثاءب فمازحه فؤاد: أنا عايز يبقى في حاجة قريب.
- وأنا عايز أنام.
قالها وضحك، فتركه فؤاد وعاد لغرفته وعاد صوت عبد الحليم مع «مداح القمر» فجاءته آخر ذكرياته على استحياء وكأن اليوم كان مقدرا للحنين وختامه لا يليق إلا بذكرى «حبيبة» التي بعد خطبتهما أدرك أنها لم تكن حبيبته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قضت ليلتها تبحث في زوايا خزانتها عن قطع غير الأسود، شيء بداخلها حثها أن يراها الطفل بألوان أخرى.. وجدت ضالتها في بنطال جينز أزرق فضفاض وسويت شيرت لبني مطبوع عليه جفن مغمض مسبول الأهداب فجهزتهما، ومع ضي الشروق ارتدتهما ونزعت الضمادة التي كانت تحيط جبينها، ثم تركت شعرها القصير يفيض بموجه.
عندما وصلت للمشفى وجدت ضياء بانتظارها يجلس بأحد مقاعد الرواق المؤدي لغرفة الطفل ويحمل بيده كيسا تبين عندما جاورته أنه اشترى كرة برتقالية تشبه كرة السلة وشوكولاتة.
ابتسمت رغم لومها لنفسها كونها لم تفكر في جلب شيء لكنها امتنت لمن سبقها.
ناداهما الطبيب ليتبعاه لغرفة محمد، فسارا خلفه بقدم كانت تتقدم خطوة وتتراجع اثنتين حتى وصلا، فوجدا الممرضة تطعمه وما إن لمحهما حتى غابت البسمة عن ملامحه ليحل محلها الارتياب، ابتسمت رقية وتقدمت منه خطوة وقالت: ازيك يا محمد.
نقل بصره بينها وبين ضياء ثم انكمش قليلا في جلسته ولم يرد، فحثته الممرضة قائلة: سلم على طنط، دي طنط اللي أنت هتروح معاها.

لوى شفته السفلية ونكس وجهه وأشاح وجهه بعيدا عنهم وسأل: هي ماما مش جاية؟
- لسه شوية.
توالت الدموع من عينيه وهو يقول: هما هيسيبوني خلاص.
- لا يا حبيبي هما زمانهم بيدوروا عليك وهيلاقوك بسرعة متخافش.
استمر بكاؤه ولم يرد فاقترب ضياء منه وسحب كرسيا وجلس بجوار سريره وقال: يا حبيبي احنا أصلا هنوصلك ليهم.
- ازاي، أنت تعرفهم؟
- لا.
- وازاي هتوصلني وأنت مش عارفهم؟
خشيت رقية أن يبدوان ككاذبين عنده فبادرت بقول: احنا فعلا منعرفهمش يا محمد، بس ندور عليهم وأنت هتساعدنا.
- هو أنا هاروح معاكم؟
- أيوة.
اشتد بكاؤه وهتف: أنا مش عايز أروح عند حد غير ماما، مش عايز حد غيرها.
اقترب منه ضياء ليربت على كتفه فدفعه وأبعد يده، ولم يهدأ إلا بعدما طلب الطبيب منهما أن يخرجا من الغرفة. جلسا خارج غرفته محبطين، توقعا خوفه لكن بردة فعل أقل مما لاقياها منه توترت رقية فظلت تفرك يديها بينما ضياء زفر وانزعج ما إن قالت رقية: هو أنا استعجلت في قراري؟
لم تكن تسأل ضياء بقدر ما كانت تسأل نفسها بصوت سمعه كلاهما، فهز رأسه نفيا وقال: احنا مستعجلين دلوقتي، صراحة معاه حق يخاف، بين يوم وليلة بقى لوحده في مستشفى وسط ناس مش عارفها وتايه عن أهم اتنين في حياته باباه ومامته.
أومأت رأسها توافق كلامه فأردف: خلينا نصبر.
- أيوة.
قام بالأكياس التي يحملها وقال: هاديهم للممرضة تقوله إنهم مننا يمكن يهدا شوية.
غاب عدة دقائق، علا عندها رنين هاتفها فأخرجته من جيبها فوجدت اسم ياسين أمامها، فظلت تتابع تواصل الرنين حتى انتهى، وقبل أن يأتيها اتصال آخر قررت إغلاق هاتفها ونسيانه بجيبها.
عاد ضياء حاملا بيديه كوبين ورقيين ومد لها يده بواحدة وقال: اسبرسو من غير لبن وسكر، صح كده؟
قالها بنفس طريقة عم سعيد عندما كان يجلب لها طلبها فابتسمت وجاورها يرشف قهوته، حتى علا رنين هاتفه فقال وهو ينظر لاسم المتصل: ده هادي.
تحرك ناحية أحد النوافذ ليضمن وضوح الشبكة ورد قائلا: معلش انشغلت اليومين اللي عدوا شوية... أنت بتقول إيه؟
وجدته فجأة ينظر باتجاهها ثم عاد بنظره ناحية النافذة وقال: أنت متأكد؟ طيب تمام... بكرة الساعة كام؟ خلاص تمام يا هادي... سلام.
وضع هاتفه بجيبه وعاد ليجاورها، فكر أن يستفسر منها عما قاله هادي ولكنه خشي أن يضايقها فصمت، لكن شيء بداخله حثه أن يسألها عنها فحسم تردده واستفهم: أنتِ هتعملي إيه في الشغل؟ أقصد يعني بعد ما سيبتي الوكالة، هتعملي إيه؟

لم تستغرب من سؤاله بقدر استغرابها من أنها قد تشارك شخصا قراراتها أو أفكارها، كونها لم تعتد أن يهتم أحد بسؤالها.
احتارت بما تجيبه واكتفت بقول: لسه مش عارفة، خصوصا بعد ما جه موضوع محمد.
قاطعتهما الممرضة بندائها وأشارت لهما كي يدخلا مرة أخرى، ورغم قلقهما دخلا، كان محمد جالسا وأثر الدموع لا يزال عالقا بجفنيه، والكرة والحلوى بأكياسهم على كومود صغير بجوار سريره، جلسا أمامه متجاورين على سريره فنظر لهما وقال: أنا آسف.
أمسكت رقية يديه وقالت: على إيه بس يا حبيبي، احنا عارفين إنك زعلان عشان ماما وبابا.
- احنا مش عايزينك تخاف مننا يا محمد، أنت هتفضل معانا لحد ما نوصلك ليهم.
أومأ رأسه دون رد فجلب ضياء الأكياس ووضعها أمامه وقال وهو يخرج الكرة: إيه رأيك صحيح بتحب تلعب كرة؟
- أيوة.
- طيب حلو قوي، كده لينا ماتش لازم نلعبه سوا، deal.
انتبه للكلمة وظن الصغير لن يعرفها، لكنه تفاجأ بمحمد يقول: deal.
- وبتحب إيه تاني غير الكرة؟
سألته رقية فأجابها: بلابل.
- دي اللي هي إيه؟
استفسرت رقية فقال: أنتم مش بتتفرجوا على Bey battle burst
- لا، ده كرتون؟
- أيوة، بيجي على سبيستون.
- أنا عارفة سبيستون.
ضحك ضياء وقال: طيب كويس إننا طلعنا عارفين حاجة.
طالعهما بعينين خفت فيهما الخوف ثم نظر للكيس المجاور وسأل ضياء: هي دي شوكلت؟
- أيوة دي ليك.
أخرجها من الكيس وقال: بس دي كبيرة قوي، دي اللي بتتقسم صح.
- بتتقسم ازاي؟
أمسكها بيده وفض مغلفها البني وأخرجها وقسمها لثلاث قطع متساوية ثم مد يديه كلا بقطع وقال: كده، اتفضلوا.
اتسعت ابتسامة رقية وهي تمد يدها لتأخذها ثم ناول الأخرى لضياء ثم أكل قطعته وقال: شكرا يا أونكل.
- اسمي ضياء.
- وأنا اسمي رقية.
ابتسم ابتسامة متحفظة وقال: وأنا محمد، اسمي محمد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصبيحة اليوم التالي جمعتهم سيارة رقية التي كانت لا تزال بمكانها بشارع جانبي للمشفى..
توسط محمد الأريكة الخلفية وجلس ضياء خلف المقود بينما رقية لم تتخلص بعد من أثر الحادثة على رغبتها بالقيادة، فجلست بالمقعد المجاور لضياء موجهة نظرها ناحية محمد من آن لآخر، كانت

تخشى شروده أو بكاءه ففكرت أن تتحدث معه، لاحظت منذ بقائهما معه بالأمس أنه يحب الحديث عن نفسه غير أنه يخاف المبادرة، فقررت حثه فسألته: أنت في سنة كام يا محمد؟
- grade two.
- امم يعني عندك كام سنة كدا؟
- eight.
- وأنتِ؟
- أنا twenty seven.
- بجد؟ أنا افتكرتك قد موني.
- مين موني؟
- أخت مامتي.
ثم نظر ناحية ضياء وسأله: وحضرتك قد ....
احتار وهو ينظر لرقية وقال: مش حاسس ينفع أقولك طنط، شكلك قد موني.
رغما عنها ضحكت وسألته: طيب عايز تقولي إيه؟
- خلاص هاقولك طنط وخلاص، أنتِ طنط رقية، وهو أونكل ضياء، صح كده.
- برافووو رد ضياء ثم طالعه بالمرآة الأمامية وقال: وأنا thirty one.
ثلاثتهم ضحكوا ثم سأله ضياء بعدها: أنت بقى كنت في مدرسة إيه؟
استشعرت رقية أهمية السؤال فانتبهت عل إجابته تساعدهم لكنه أجاب: بتلقائية: B.L.S أو B.S.L. مش فاكر بالظبط.
وارت خيبة أملها وشعرت به أسند رأسه للخلف وركز بصره على الطريق فتركته والتفتت تطالع الطريق من نافذتها.
تأملهما محمد وقد شرد كل منهما بالطريق فانتابه القلق، حلت صورة والدته أمامه وهي تبتسم وملأ صوتها أذنيه:
- «يا محـــــــــــمد»
- «يلا اصحى للمدرسة، يلا يا حبيبي عشان بابا هيوديك على سكته»
تذكر قبلتها وضمته لصدرها وشطائر جبن الأكواب التي يحبها
ترقرقت الدموع بعينيه فلاحظها ضياء فأشار لرقية فانتبهت والتفتت للخلف وسألته وجلة: مالك؟
- مفيش.
لم يبك، وعاد ينظر للطريق من النافذة وقال: أنا مش عارف الشارع ده خالص.
- يمكن أنت كنت ساكن في حتة تانية.
- الشارع بتاعكم كان فيه إيه يا محمد، فاكر؟
ضيق حاجبيه وبدأ يفكر، وقبل أن يجيب علا صوت رنين هاتف ضياء فأخرجه من جيبه وأجاب: أيوة يا تالين، ..... ماشي يعني قدامي حوالي ساعتين ..... ماشي، سلام.
لم تبد رقية أي ردة فعل ولا أي ملمح لضيق أو غضب لكنه قرر أن يحكي لها تفاديا لأي سوء ظن بينهما فقال: النهاردة في meeting عشان الإعلان الجديد.
- ربنا يوفقكم.

وارتباكه أنساه سؤاله لمحمد وركز على الطريق بينما محمد استوقفه أنه لا يتذكر شكل الشارع الذي كان يعيش فيه، فصمت ولم يجب السؤال.
بعد قرابة الساعة وصلوا فيلا رقية، ساعدت رقية ضياء على حمل الأكياس التي جلبوها معهم من المشفى، ونزل محمد وطالع الفيلا فانتابته ريبة ورهبة.
استقبلتهما «زينة»، حملت عنهما الأكياس فسألتها رقية: حضرتي الأوضة اللي قولتلك تحضريها لمحمد؟
- أيوة والغدا اللي طلبتيه جهزناه!
- تمام طلعي الحاجة في أوضة محمد وخلي أم زينة تحضرلنا الغدا.
لم تمتلك الرهبة محمد وحده، ضياء بدوره استغرب وانبهر، كانت المرة الأولى التي يرى فيها حياة رقية عن كثب، فتذكر عدد المرات التي كانوا يتعمدون فيها التنمر عليها لكلمة أو موقف ربما كان تصرفها عفويا لكنهم لم يتقبلوا اختلافها.
وضعت هاتفها على كونسول أبيض كان في مواجهة الباب، ثم أشارت لأريكة بترولية اللون موضوعة بجوار الكنسول متخذة شكل حرف الـL وقالت: اتفضلوا.. ولا تحبوا نقعد في الصالون؟
- أنتِ باباكِ ومامتك لسه مرجعوش من السفر؟
- لسه.
- إن شاء الله يرجعوا بالسلامة.
لاحظت انبهار محمد ببيتها فسألته: إيه رأيك؟ هيكون ليك أوضة فوق أنا جهزتهالك.
قال باستحياء: شكرا، بس أنا هاقعد شوية صغيرين صح؟
لم تنسه فيلتها الزرقاء الفسيحة بيته، ولم يبد حماسة تجاه كلمة غرفة جديدة، تحرك ثم جلس على الأريكة التي أشارت إليه أن يجلس عليها هادئا.. بينما ضياء قال وهو يمد له يده ليصافحه: لو احتاجت حاجة قول لطنط رقية تكلمني.
- هو أنت مش ساكن هنا؟
سأله مصدوما فاضطرب ضياء وقال: لا، أنا عندي بيت تاني، هابقي أخليك تزورني فيه، ماشي؟
تجهم وجهه وأومأ رأسه بينما وقفت رقية قبالة ضياء وقالت: طيب خليك اتغدى معانا.
- معلش أنا لازم أمشي.
- نسيت إن في meeting.
توتر ما إن ذكرت هي الوكالة وقرر أن يغادر قبل أن يأكله فضوله فيدفعه لسؤالها؛ هل حقا تركت العمل في الوكالة؟ أم أنه ادعاء كما أقر ياسين نيابة عنها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جمعتهم الغرفة الضبابية، وأمام الطاولة الدائرية وقف ياسين بمكان رقية بيده قلم أسود يخط بمنتصف السبورة البيضاء «Her» بخط رديء ثم التفت ناحيتهم وقال: رقية بعتت التصور المبدئي عن الإعلان، وهنبدأ تجهيز عشان منتأخرش على العملا.
أمسك بيده ورقة بها أربعة أسطر مكتوبة وبدأ يشرح ما بها..
- طبعا زي ما أنتم شايفين من الاسم كده her ، يعني أكيد موديل ست.
علقت تالين بشكل هازئ وقالت: مش رقية دايما معترضة على الموديل الستات؟

زفر لكونه يقف على مضض يحاول شرح فكرة العملاء المطلوبة في أكثر كيفية تبدي أن رقية من كتبتها فلما جاءه سؤال تالين رد منفعلا: ده كان في إعلان واحد عشان الموديل مكنتش مناسبة.
وكادت تعلق لكنه شزرها فصمتت فأكمل: هنعتمد على فكرة فصول السنة ونجيبها وهي بتاكلها في الأربع فصول ونختم بـ «her only for her»
- هي رقية هتبعت الـstoryboard إمتى؟
سأل هادي فأجابه ياسين: خلال يومين رقية هتبقى معانا هي بس تعبانة شوية.
نظر ضياء لياسين فأشاح بعينيه عنه وأكمل موجها كلامه لتالين: الموديل اللي اتفقوا معاها للإعلان جاية بكرة، هنبدأ تجهيز الملابس والاكسسوري.
ثم نظر لمايسة وتابع: أفكارك للديكور واللوكيشن.
- حاضر.
- أنا عايز خلال ٣ أيام بالكتير نعمل البروفات.
- تمام يا boss.
- تمام.
أنهى الاجتماع ثم قال: كلكم تتفضلوا ما عادا ضياء.. عايزك.
خرجوا وأغلقوا الباب خلفه وبقي ضياء فسأله ياسين: حد من الوكالة عرف بموضوع الحادثة؟
- لا.
- تمام.
- ماشي يا ضياء اتفضل أنت.
استغرب ضياء من كونه لم يرِده إلا من أجل التأكد من أنه لم يخبر أحدا، فخرج من مكتبه واتجه للاستراحة المجاورة للكافتيريا والتي يجتمعوا فيها بعد كل اجتماع أو تصوير.
دار عم سعيد بينهم بأكواب القهوة الورقية بينما هم جلسوا على أريكتين متجاورتين كضلعين لمثلث بلا قاعدة، مكسوتين بجلد أسود.
شرد ضياء بينهم لكنه كان يسمعهم، اسم رقية كان المتصدر لكلامهم بين احتمال وتكهن وتوقع لتصرفاتها أو حماقاتها أو الخلافات التي ستنتظرهم بعد الإعلان ككل مرة، خمن أنه لو لم يكن يعرف أين رقية وماذا تفعل لكان قبلهم يؤيد ويوافق على كلامهم أو ربما يسبقهم.
علا رنين هاتفه فاقتطعه من مجلسه، كان الاتصال من القسم ظن أنهم قد وجدوا أهل محمد فأسرع من مكانه وابتعد عن زملائه ورد على هاتفه وبعد عدة دقائق عاد، فحمل حقيبته على ظهره وحياهم دونما توضيح لسر صمته ولا سر رحيله المفاجئ.
أخذ أول سيارة أجرة قابلته وذهب للقسم وقد أرجأ اتصاله برقية بعدما يعرف سبب طلب الضابط مقابلته، وصل ثم اجتمع مع الضابط بمكتبه فأمسك الضابط بورقة وقال: غالبا الطفل ملانا الاسم غلط.
- اسم مين؟
- اسم والده، سليم شامل بركة.
أعطاه الورقة فقرأ ما كتب فيها.
«لم يستدل على صاحب الاسم»
- يعني إيه؟

- يعني الاسم ده مش موجود في السجل المدني.
- مش جايز متوفي، أنا أصلا لاحظت إن الولد بيسأل على مامته بس ومجبش سيرته خالص.
ورغم أن ما قاله ملاحظة مهمة إلا أن الضابط أوضح: حتى لو متوفي كنا هنلاقيه مثبت، لكن الاسم ده ملوش وجود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٤)

لم تعجبه غرفته، أقر أنه يخاف النوم وحده، كانت المرة الأولى التي تجد رقية فيها نفسها مضطرة لأن يشاركها أحد غرفتها، لكنها لم تتضايق.
عند استئذانه ليدخل غرفتها وجدته قد بدل ملابسه للترنج الأصفر الذي ابتاعاه له، وقد بدا فضفاضا عن ملابس الخروج مما اضطرها لثني أكمامه عند معصمه، أما هي فكانت تجلس على مكتبها وتكتب في ورقة برتقالية بقلم أزرق اسمه وكل معلومة عرفتها عنه، حدق بها وسألها: دي عني؟
- أيوة، عايزة أشوف احنا ممكن نساعدك ازاي!
لم يبد أي حماس تجاه كلامها غير أنه سأل: هتعرفوا ترجعوني لماما؟
- أكيد يا حبيبي إن شاء الله.
تلونت ملامحه بابتسامة خفيفة فطلبت منه تثبيت الورقة على السبورة بدبوس أخضر، نفذ ما طلبته ثم حدق بالأوراق المثبتة وسألها: هو إيه الورق ده؟
نظرت لأفكار أفلامها المبعثرة بلا هدف وقالت: حاجات مهمة بخصوص شغلي.
- أنتِ ... قصدي حضرتك بتشتغلي إيه؟
ابتسمت واستفهمت: أنت حاسس إني شبه موني أخت مامتك؟
- شوية.
- خلاص قولي عادي؛ أنتِ.. وأنا يا سيدي باشتغل مخرجة، عارف الممثلين اللي بيطلعوا في الأفلام، المخرجين بقى هما اللي بيعملوا الأفلام دي.
بدا واضحا أنه يهز رأسه موافقا لكلامها لكنه لم يفهم شيئا، انتبهت لكونه واقفا بجوارها وهي جالسة على كرسيها، فقامت من مكانها واتجها ليجلسا سويا على سريرها وسألته: طيب عارف الإعلانات؟
- أيوة.
أمسكت هاتفها وكتبت باليوتيوب «رقية كامل» ووضعت الشاشة أمامه وقالت: دي الإعلانات اللي أنا اشتغلتها هتلاقي اسمي مكتوب في آخرها.
تابع باهتمام فيديو واحد وابتسم عندما رأى اسمها وقال: رقية كامل ده اسمك؟
- أيوة.
- وأونكل ضياء زيك؟
- لا.. هو اللي بيصور وأنا بخرج.
- تمام.
قالها وهو يهز رأسه مرة أخرى غير مدرك لطبيعية العملين فضحكت لكونه يخشى أن يبدو غير فاهم، فضوله حثه لمشاهدة شيء آخر لكنه خشي أن يضايق رقية فمنحها هاتفها، وضم ذراعيه أمام صدره وجلس منكسا رأسه، فأسندت هي خدها على يديها وتأملته ثم تنهدت وسألته: أنت عايز تلعب على الموبايل؟
- هو ينفع؟
- اه ينفع، وينفع على التاب.

ملأت الابتسامة قسماته فقامت تبحث في أدراج تسريحتها عن «التاب» وقامت بشحنه ثم قامت بتنزيل اللعبة التي طلبها mine craft وتركته لاهيا فيها.
مر الوقت مع محمد سريعا فنزلت من غرفتها للمطبخ لتطلب من «أم زينة» تحضير الغداء.
ثم فكرت أن تبادر هي بالاتصال بوالدتها لتشرح لها أمر محمد بهدوء وقد رتبت أفكارها في ورقة على أمل تفادي شجارهما لكن رنين الهاتف باتصال والدتها باغتها، فعلى غير العادة اتصلت عصرا وأول ما تحدثت هتفت: أنتِ كمان جيبتي الولد الفيلا؟ لا ده أنتِ اتجننتي رسمي.
تزامن زعيقها ولحظة دخول رقية المطبخ ففطنت أن من سبقها بإخبار والدتها كان «أم زينة» التي اصفر وجهها ورقية ترمقها غاضبة لكنها تجاهلت غيظها وسألتها: أحضر الغدا اللي قولتيلي عليه يا ست رقية؟
- «رقية أنا باكلمك مش سمعاني»
استوضحت أم زينة صوت زينات فأشاحت وجهها خجلا فقالت رقية: حضريه دلوقتي.
ثم ردت على والدتها وقالت راجية: اديني فرصة أشرحلك الموضوع.
- تشرحيلي إيه؟ احنا مش هنخلص من الحادثة دي؟ مش بابا قالك سيبي المحامي يتصرف..
- يتصرف في إيه يا ماما؟ ولد خبطته ولسه بندور على أهله.
- المحامي قال ممكن يقعد في أي دار رعاية لحد ما البوليس يلاقي أهله، احنا مالنا.
- ازاي يا ماما، أنا اللي خبطته، ازاي أسيبه؟
- أمال تجيبلنا ولد منعرفش مين هو ويقعد معاكِ، ولو حصله حاجة هتتصرفي ازاي؟ دي مسئولية.. هو أنتِ بتعرفي تتحملي مسئولية نفسك حتى؟
تذكرت الورقة التي رتبت فيها كلامها فصعدت مسرعة حتى غرفتها وفتحت بابها فجأة فلم تجد محمد بالغرفة فنست أمر الورقة وانتقلت للغرفة المجاورة التي أعدتها له فلم تجده بينما والدتها كانت لاتزال على تعنيفها: اسمعي الكلام يا رقية واعملي فورا اللي طلبه المحامي.
- لا.
قالتها غاضبة وقلقة ثم نادت: محمد يا محمد.
- «محمد إيه؟ أنا باكلمك هنا، كلميني»
خرج محمد من الحمام الملحق بغرفتها وقد اضطرب من صوتها فسألها: في حاجة حصلت؟
- خضتني يا محمد
- «محمد مين يا بنت .....»
أفزعها صوت والدها وهو يسب ويلعن -خلفة البنات وخلفتها واليوم الأسود الذي فرض وجودها عليه- فسمعت والدتها تزعق معه، فزفرت ويأست، لم تمنحها أم زينة فرصة لتفويت شجار والديها وسبقتها وأخبرتهما بمجيء محمد معها..تماما كما فعل ياسين حين بادر هو بإبلاغهما عن الحادثة..
- «رقية»
- أيوة يا بابا.
- بابا إيه وزفت إيه، اسمعي، الكلام اللي قولناه يتنفذ، هاكلم ياسين يجيلك مع المحامي وياخدوا الولد وتروحي معاهم....
- يا بابا أنا قولت لحضرتك مش هينفع.

أخذت الورقة من فوق المكتب وخرجت من غرفتها وانتقلت للغرفة الأخرى كي لا يسمعها محمد وقالت وهي تنظر للورقة: الولد واضح من طريقته إنه من عيلة كويسة، لو حطيته في مكان وأهله معرفوش يوصلوله هتبقى مشكلة، وهيبقى شكلها مش حلو في حقي.
منت نفسها أن يلين كونها تدرك مدخله وشعرت أنها اقتربت لأنه صمت فتابعت: بعدين الموضوع كله ممكن يبقى أسبوع بالكتير فمش هيحصل حاجة من أسبوع يعني.
- طيب والوكالة وشغلك؟
ورغم شعورها بالراحة لكونه وجه دفعة الحوار لبوادر قبول إلا أنها خشيت أن تمنحه إجابة تخسر منها ما كسبته فقالت تفاديًا للمزيد من الشجار: أنا هارتبها مع ياسين، متقلقش.
- رقية.
- قولتلك متقلقش يا بابا.
- ماشي لما أشوف آخرتها معاكِ.
زفرت ما إن انتهيا من مكالمتها فخرجت من الغرفة وعادت لمحمد، بدا قلقا وكأنه خاف من حدتها التي ظهرت عليها وهي تتحدث بالهاتف، فربتت على كتفه وتمنت لو صبت جم غضبها فوق رأس أم زينة لكنها كظمت غيظها خشية أن تزيد خوفه، وسألته: تحب نأكل هنا ولا في الliving ولا على السفرة؟
- أي حاجة.
- طيب إيه رأيك نشوف فيلم حلو واحنا بنتغدى؟
- ماشي.
طلبت من أم زينة تحضير الغداء بحجرة الـliving المجاورة لغرفتها؛ إذ جلسا متجاورين على ركنة خضراء على شكل حرف "U" كانت تحوط الحوائط عدا حائط كانت تتوسطه شاشة تلفاز كبيرة، وضعت أم زينة الطعام على الطاولة المقابلة للركنة وشرعت رقية في إطعامه وهما يتابعان «toy story»
رأت أثرا للطعام حول فمه فسحبت محرمة ورقية ومسحت فمه فعلق مبتسما: ماما كانت دايما تعمل كده وأنا باكل.
ابتسمت من تشبيهه لها بوالدته فخفق قلبها بسعادة واستأنفت إطعامه وقالت: أنت فكرتني، احنا كده لازم نجيب لك فرشة أسنان.
- أنا ماما كانت بتخليني أغسل أسناني كل يوم.
- صح يا محمد، أنت عارف أنا بقى نفسي أشوف مامتك، وإن شاء الله أول ما ترجعلها، أنا وهي هنبقى أصحاب عشان أشوفك على طول.
- وموني؟
ضحكت وقالت: وموني.
ولم تكتمل ضحكتها؛ غابت ما إن رأت اسم ياسين يعلو شاشة هاتفها، ورغم إدراكها لما ينتظرها أمسكت هاتفها وقالت لمحمد: هارد على التليفون وأرجعلك.
عادت لغرفتها وأغلقت بابها وردت: أيوة يا ياسين، ازيك.
- أنتِ بتستعبطي مش كده؟
عرفت من صوته أنه قد تحدث لوالديها فحاولت تمالك غضبها وسألته: ليه؟

- بعد كل اللي عملتيه بتسألي ليه؟ فين شغلك يا رقية؟ حطيتي الحادثة حجة واهي عدت، ودلوقتي رايحة تجيبي الولد وتقعديه معاكِ؟ كل ده عشان تتهربي من شغلك؟
- ياسين أنت كل ده مش مستوعب إني سيبت الوكالة، طيب أوكى يا ياسين، أنا مشيت من الوكالة، سيبت الشغل ومش هارجع.
- تبقي اتجننتِ، بعد ما الوكالة ابتدت تعمل اسم، بعد ما اسمك اتعرف، وكل ده ليه؟
- أنت عارف ليه يا ياسين، ومش مستني تسألني.
- كل المواقف دي حصل زيها وأكتر منها وعدت، اشمعنى دلوقتي؟
- عشان اكتفيت، وتعبت ومبقاش عندي استعداد أبذل جهد أكتر من كده في مكان لا شغلي فيه بيتقدر ولا أنا نفسي.
- هنرجع تاني للكلام اللي مالوش لازمة.
- بالنسبالك، لكن بالنسبالي له ألف لازمة.
- تمام يا روكا، بس عارفة لما ترجعي تتحايلي عليا زي كل مرة عشان بس أسامحك مش هيحصل، وابقي وريني هتعرفي تشتغلي ازاي من غير الوكالة؟
أغلق المكالمة في وجهها فألقت هاتفها على سريرها وجلست على طرفه تحاول أن تهدئ من فورة غضبها قبل عودتها لترافق محمد، ورغم خوفها من ياسين إلا أن شيء ما بداخلها شعر بالتحرر وكأن الغيمة انقشعت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتاب ضياء القلق ففاض بهمه لماجدة وفؤاد بعد عودته من القسم وهم يتناولون عشاءهم، وبعينيهما التي اعتاد منها أن يرى الاهتمام حتى بأمر من لا يخصهم أبصر الشفقة على محمد حتى أن ماجدة تناست طقس الشاي بلبن بعد العشاء لتناقش معه الاحتمالات التي دارت بعقلها، يرى فؤاد أن الطفل ربما ارتبك وأملاهم اسمًا خطأً لكن ماجدة تعترض مؤكدة؛ لم نسمع عن شخص أخطأ في قول اسمه.
بصباح اليوم التالي أيقظ رقية باتصاله، ليحكي لها ما حدث بالقسم فلم تجد شيئا لتضعه بجوار احتمالات والديه فاكتفت بتأمل الغارق في نومه فوق وسادتها ذلك الذي اقتحم خواء حياتهم عنوة ولا تحمل ملامحه سوى براءة الملائكة.
احتارا بين أمرين، إخبار محمد بما قاله الضابط لعل اسم أبيه اختلط عليه على إثر الحادث أو الصمت ومحاولة سؤال محمد بطريق غير مباشر، واتفقا على ثانيهما، فمحمد بالكاد هدأ خوفه تجاههما ولكنه يسأل من آن لآخر علهما يحملان له إجابة جديدة.
مر يوم محمد الأول بسلام، وباليوم الثاني خرج برفقة رقية لأقرب «هايبر ماركت» بمحيط رقية السكني واشتريا بعض حاجيات لمحمد؛ فرشاة أسنان، مشط، شامبو أطفال وبعض الحلوى وفشار ومقرمشات.
عصرًا هاتفهما ضياء عبر الـ»ماسنجر» وكلم محمد مكالمة فيديو انتهت بمجاورة ماجدة لضياء والتعرف على محمد.
وليلا جمعهما -رقية ومحمد- حجرة الـliving، تمدد محمد على جانب من الركنة وأسند ظهره على وسادة صغيرة ودثرته رقية ببطانية قطيفة بلون الزيتون وشاهدا سويا "zootopia"
ولم يختلف اليومان التاليان كثيرا، لكن باليوم الخامس لمحمد طلب ضياء أن يرافقهما ليشتريا له ملابس تكفيه ما داموا لم يعد بوسعهم تحديد مدة إقامته معهم.

قرابة الواحدة ظهرا أتى ضياء بسيارته اللانوس البيضاء ووجهتهم كانت نفس المحال التي اشتروا منها بالمرة السابقة، كانا يتبادلان وضع القطع ويجلسان منتظران خروج محمد بعد قياسه بعضها، وقد أقرا معا أن لا لون كان يليق بوجهه ويبدو فيه جميلا مثل الأخضر بكل درجاته.
بعد يوم طويل اجتمعوا بـ»food court» مول سيتى ستارز وطلبوا «بيتزا» وتناولوها بشهية وبدأ ضياء الكلام سائلا محمد: أنت إيه أكتر بيتزا بتحبها بقى؟
- بحبهم كلهم.
ابتسمت رقية وسألته: كنت بتروح مع ماما وبابا تأكل بيتزا فين؟
- لا، ماما كانت بتعملها في البيت، احنا كنا بنروح ماك.
- طيب تحب نروح ماك؟
- لا، أصلا مكونتش باحبه، البيتزا دي أحلى.
استوقف تعليقه رقية، لكنها لم تستفسر لكن ضياء استفسر: طيب كنت بتحب تروح فين؟
- نأكل آيس كريم.
- بس كده؟ سهلة.
- بلاش يا ضياء عشان احنا في الشتاء، ممكن يتعب.
نظر لها محمد بعينين خذلهما رفضها فرَق قلبها ثم نظر بعدها لضياء وقال: ماما برضو كانت هتقول كدا
قال جملته فشعرت أنها لن تقوى على كسر خاطره، كلما قال أنها تذكره بوالدته كلما تحرك قلبها فرحا، وغلبتها فطرتها، وشعرت أنها ملكت الدنيا لأن طفل قال ولو بشكل ضمني أنه يحبها أو أنها تذكره بمن يحبه، حب صادق بريء تماما كوجه محمد الذي نظرت له فوجدته متسخا من بقايا الطعام حول فمه، حركت وجهه ناحيتها ومسحت بقايا الكاتشب بمحرمة ورقية وقالت عله يفرح: طيب أنا ممكن أوافق على ميلك شيك بس ميكونش ساقع قوي.
- فراولة.
تهللت أساريره وهو يقولها فقالت مؤكدة: فروالة.
بطريق عودتهما بالسيارة قررت رقية ألا يحل الصمت ضيفا كعادته فبادرت بالكلام وسألته: مقولتيش موني في سنة كام؟
- موني مش بتروح مدرسة، موني بترسم وبتخليني أرسم معاها
- أنت بتحب الرسم؟
أومأ رأسه ثم نظر لضياء وسأله: هو المصور ده اللي بيصور بالكاميرا
- صح برافو عليك.
ابتسم لتشجيع ضياء فقرر ضياء سؤاله: طيب أنت باباك بيشتغل إيه؟
بهت وجهه عندما سأله عن والده فقال باقتضاب وكأنه لا يريد الكلام: بابا مش هنا.
خشي أن تعني الإجابة أنه متوفى فاستفسر: أمال مين عايش معاك؟
- ماما.
- بس؟
قلقت رقية فنظرت لضياء نظرة رجته أن يصمت، بينما محمد لم يرد ونظر إلى الطريق عبر نافذته، وحل الصمت ذلك الضيف الثقيل ثانية.

قلق ضياء من هيئة محمد فقرر التوقف أمام أول مكتبة قابلته والتفت لمحمد قال: تعالى معايا يا محمد هنجيب حاجة.
وقبل نزول رقية لترافقهما طلب منها ضياء أن تنتظرهما، فزاد قلقها من طريقته.
غابا عدة دقائق ثم عادا يضحكان وضياء ومحمد أياديهم متشابكة وبيد محمد عدة أكياس، ركبا السيارة فالتفتت رقية لمحمد وسألته: وريني كده جيبتوا إيه؟
كانت اللعبة التي قال محمد اسمها بالمشفى -بلابل- واسكتشات رسم وألوان وكتب تلوين. بدا واضحا سعادة محمد بما جُلب له حتى أنه التهى في لعبته حتى وصلوا للفيلا. سبقهما محمد حاملا أكياس ألعابه بينما جلبت رقية مع ضياء الأكياس من حقيبة سيارتها، تقدمته لتفتح الباب وركض محمد للداخل بينما ظل ضياء على بعد مسافة فحثته رقية قائلة: اتفضل.
- خليها وقت تاني، لأني اتأخرت جدا.
- طيب حتى فنجان قهوة.
- معلش، مرة تانية.
ناولها ما تبقى من أكياس بيده واستدار ليخرج فخرجت خلفه ونادته وقالت: ضياء، أنا متشكرة قوي.
- على إيه بس!
- كل حاجة، كفاية تعبك معانا.
- لا أبدا، أي وقت تحتاجوا لأي حاجة كلميني على طول، تصبحوا على خير.
عاد محمد وجاور رقية ولوحا له وهو يغادر، استقل سيارته وعاد لبيته، وحين سمعت ماجدة صوت مفتاحه هتفت من مكانها أمام التلفاز: كل ده تأخير يا ضياء؟
وضع مفاتيحه فوق خزانة الأحذية المواجهة لباب الشقة وجلس بالأريكة المقابلة لها وقال: الساعة لسه تسعة يا بطاطا.
- طيب أسخنلك تاكل؟
- لا أنا أكلت مع محمد ورقية.
بدت متضايقة ثم قالت: طيب كنت جيبتهم معاك واتغدينا سوا.
مستغربا قال: أجيب مين يا ماما، أنتِ متخيلة رقية تيجي هنا؟
- اعزمها مع محمد، واهو تجيب محمد أشوفه.
- مش هتوافق، يعني صعب.
شرد للحظة وفكر ثم أعاد رأيه فيها كما تعود: بتاكل بشوكة وسكينة ومش بتفهم الهزار وبتقفش من أقل كلمة والتعامل معاها صعب جدا.
ولكن شيء ما بداخله شعر بمبالغته، قاطعهما صوت فؤاد وهو يجلس بجوار ضياء وقبل أن تعلق ماجدة على كلمات ضياء سأله: طيب وصلتوا لحاجة مع محمد؟
- لا، كل اللي فهمته من وسط الكلام إن باباه مش موجود، خوفت اسأله صراحة يطلع متوفي.
- الصبر طيب، إن شاء الله نلاقي أهله.
- يا رب عشان مامته تلاقيها يا عيني مقهورة عشانه.
لم يعلق ضياء ووقف ثم قال وهو يتثاءب: يا رب يا ماما، يلا تصبحوا على خير.
تثاءب ثانية وتركهما ولاذ بغرفته، بدل ملابسه وتمدد ورغم شده توقه للنوم استجداه ولم يأت، فأمسك هاتفه يقلب فيما فاته بيومه فوجد عدة رسائل مرسلة من هادي ففتحها وقرأها...

- «فينك، فاتك نص عمرك النهاردة»
- «ياسين هيجيب مخرجة بدل رقية تعمل الإعلان الجديد»
- «أول meeting معاها بعد بكرة»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكرت حبها للألوان وهي تمسك بالأحمر لتلون حبات تفاح مرصوصة على شجرة وتتبعها بتلوين أوراقها بالأخضر، كانت الألوان تغطي سريرها هي وكتب التلوين واسكتشات الرسم وكلاهما -هي ومحمد- يجلسان على ركبتيهما أمام السرير متقابلين يستندان بكتبهم عليه برفقة شرائح كيك مع شاي بلبن، وحدهم منسجمين وكأن الزمان نسيهم..

توالت الذكريات على عقل الصغير متذكرا والدته وخالته فرسمهما وبكى.. باغتها بكاؤه فقامت من مكانها واحتضنته، فتبت ذراعيه حولها وكأنه يخشى أن يفُقد مرة أخرى. لم يختلف مذاق الأمان بين من يمنحه ومن يتلقاه..بين الذراعين تذوب الفروق، بحياتها كلها لم تتذكر حضن والدتها ولم تختبر طعمه، طعم الأمان أخضر وعبيره دافئ وملمسه كالفجر حين يلفح وجهك، ووحدها جدتها منحتها مذاقه ورحلت قبل أن تشبعها منه. سكن بين يديها فقالت: متخافش يا محمد، أنا معاك، أنا وأونكل ضياء معاك، وهنلاقيهم أوعدك إننا نلاقيهم

- بجد!
- بجد والله.

ثم وكي تنسيه حزنه أمسكت كراسته وقالت مبتسمة: الله، أنت طلع رسمك حلو قوي.

- عجبك؟
- جدا جدا، إيه رأيك لو ترسم الحاجات اللي كانت في أوضتك، عشان تحس إنها معاك دلوقتي؟
- ماشي.

مبتسما عاد لجلسته متكئا على طرف السرير يرسم كل ما تأتيه ذكراه، فرسم من ألعابه كرته وسرير ولعبة جلبها له جده ومن حاضره، رسم «رقية» ومنحها اللون الأزرق لفستانها، و»ضياء» وقد منحه الأرزق لبنطاله والأصفر لقميصه ثم رسم نفسه بينهما، منح نفسه البرتقالي والأخضر ثم وضع كراسته أمامها وقال: إيه رأيك؟

نظرت لما رسمه وضحكت؛ كان اسمها مكتوبا «روأيا» و»دياأ» فوق ضياء، تأملتها سعيدة ثم قالت: حلوة قوي دي لازم نعلقها على الـboard، إيه رأيك؟

- yesss

أومأت رأسها إيجابا ثم فكرت أن يشاركهما ضياء اللحظة فقامت بتصويرها وإرسالها عبر «واتس آب» لتكون أول رسالة بينهما ثم كتبت بعدها

- «محمد رسمها»

كان جالسا باستراحة الوكالة ساهما ومغتاظا عندما سمع صوت رسالة جاءته فأخرج هاتفه وفتحها متلهفا ما إن رأى اسم رقية المرسِل، ثم تعالت ضحكته حتى أن هادي انتبه فنظر إليه وأشار لتالين فظلا يرمقانه وقد تبدل مزاجه بعدما دس وجهه بهاتفه يكتب «أنا حلو كدا؟» ثم وضع ثلاثة وجوه تضحك

رأى recording audio.... فقام من مكانه وابتعد قدر المستطاع عن بقية زملائه وعند وصول التسجيل الصوتي سمعه

- «احنا قاعدين بنرسم وطنط رقية قالتلي هتعلقها على الboard بتاعتها، إيه رأيك»
- «عجبتني جدا جدا»
- «حلوة قوي يا محمد»
وبعد ثوان وجدا اتصالا منه، رد عليه محمد بينما رقية كانت تثبت رسمته، ثم منحها محمد الهاتف وقال: أونكل ضياء عايزك.
وأول ما ردت جاءها صوته متضايقا وسألها: أنتِ فعلا مش هترجعي الوكالة تاني؟
استغربت توقيت سؤاله لكنها ردت مباشرة: أيوة.
لم يتردد كعادته وقال بحسم: رقية أنا هاحاول أصلح الموقف، هاشوف طريقة حتى لو هنعيد تصوير الإعلان.
- هو في إيه يا ضياء، في حاجة حصلت؟
تردد في إبلاغها، وتردد في إخفاء الأمر عنها، قبل الحادثة لم يكن يعرف عن رقية شيئا إلا أنها تقدس عملها وبعدها أدرك أنها ما كانت لتستحق دناءتهم.
- ضياء؟
- في إن مخرجة جديدة هتيجي بكرة وهنرتب الشغل معاها.
صمت ليتبين ردة فعلها فتفاجأ حين قالت: طيب الحمد لله.
- نعم؟ يعني أنتِ مش متضايقة؟ رقية أنا عارف أنتِ كنتِ بتحبي شغلك ده قد إيه يعني أكيد..
- اسمعني يا ضياء، قرار إني أسيب الشغل في الوكالة قرار أنا كنت عايزة آخده من زمان، بس يمكن مقدرتش، فالحمد لله إن ده أخيرا حصل.
- بس مش بالطريقة دي يا رقية.
- مش هتفرق، طالما المكان ماكنش مكاني يبقى لازم كنت أمشي.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
عشرة أيام مرت على محمد بفيلا رقية، رافقها فيهم مرة لمعرض الكتاب، ومرة وحيدة للوكالة جلبت فيها أشياءها، ذهبت باليوم التالي لمكالمة ضياء قبل وصولهم وجمعت أوراقها وكتبها بصندوق كرتوني وأعطت مفاتيح مكتبها لعم سعيد ولم يعرفوا إلا قبل اجتماعهم مع «نادين» المخرجة الجديدة عندما منح عم سعيد لياسين مفاتيح المكتب أمامهم. وباليوم الثاني عشر كان ضياء بانتظارهم، وكانت وجهتهم منزله بعدما دعتها ماجدة للغداء، كانت مترددة بالقبول لولا حماس محمد ورغبته في رؤيتها.
قبل وصولهما لبيت ضياء مرا بفؤاد في استديو التصوير الخاص به، كان من واجهة جرانتيت بأخضر مائل للأسود، وفي الواجهة الزجاجية صور زفاف وخطوبات وابتسامات متفرقة في إطارات مختلفة وبدلا من اليافطة كان اسم «فؤاد» مفرغا ومكتوبا باللون الذهبي.. صعدوا ثلاثة درجات رخامية ودفعوا الباب الزجاجي ودخلوا فوجدوا فؤاد بانتظارهم، ابتسم أول ما لمح الصغير وسأله: أنت الأستاذ محمد؟
- أيوة.
- يا أهلا وسهلا نورت الاستوديو، إيه رأيك بقى آخدلك صورة؟
تفاجأت رقية، حين وجدت ضياء بجوار فؤاد يضبطون الكاميرات لتصوير محمد، كانت ابتسامته واسعة وفرحة في قميصه الأصفر وبنطاله الزيتوني وجاكته المنفوخ بدرجة زيتون داكنة أكثر.. وبعد عدة صور طلب فؤاد من رقية مجاورة محمد، ترددت إذ خشيت أن طلتها بالبيج والأبيض تكون غير

موفقة لكنها وافقت عندما رأت فرحة محمد وهو يقف بجوارها، صور توالت بعد صور حتى جمعتهما الثلاثة صورة، ضياء، رقية، ومحمد بينهما. بالسيارة قاد فؤاد بهم وقال: كان الاستوديو ده لأبويا كنت باشتغل معاه جنب تدريس الفلسفة بس ضياء بقى غاوي من صغره تصوير أكتر مني وكان بيروح مع أبويا يشتغل في الأجازة ودلوقتي زي ما شوفتي هو اللي جدده وبيشغله معايا
- فلسفة وتصوير؟!
سألته رقية مستغربة فقال وهو ينظر لوجهها في المرأة الأمامية: إيه رأيك بقى؟
- أكيد حاجة حلوة.
وصلوا لبيت ضياء وكان الباب الحديدي مفتوحا كعادتهم صباحا، دخلوا بينما بقي فؤاد يغطي سيارته، أبصرت رقية منزلهم فرأت ملامح الزقازيق تكسوه ورائحة طعام جدتها تفوح منه، سبقهم ضياء على السلالم بينما فتحت ماجدة الباب لاستقبالهم. وأول ما رأت محمد ابتسمت وضمته، بينما رقية كانت تقف بعيدا تواري ارتباكها حتى ابتسمت لها ماجدة وحثتها لتدخل قائلة: اتفضلي يا بنتي.
كانت تلبس جلبابا قطيفة فضفاضا بني مطرز بالذهبي وعلى رأسها تربون بيج، صافحتها رقية ومدت يدها بحقيبتين ورقيتين للهدايا، بالأولى كتاب موسوعة الطبخ بجزئيه والثانية علبة شوكولاتة سويسرية وقالت: أتمنى منكونش أزعجناكم.
- لا.. إزعاج إيه؟ اتفضلي.
لمحت ماجدة هديتها فابتسمت وقالت ممتنة: مكنش له لزوم التعب ده يا رقية.
- مفيش أي تعب يا طنط المهم بس تكون عجبت حضرتك.
- تسلم إيدك يا حبيبتي.
تراءى لها أن تخلع نعليها هي ومحمد كما كانت تفعل ببيت جدتها فلما داست أقدامها على خشب الأرضية البني لامسها دفء لم تعتده، جاورت محمد وجلسا على أريكة الصالون النبيتي..
بينما بالمطبخ كانت ماجدة مرتبكة وهي تغرف الأطباق، فلما جاورها ضياء ليساعدها قالت: تفتكر الأكل ده هيعجبها؟
- كله من إيدك سكر يا بطاطا.
جهز طاولة الطعام وبدأ يضع عليها الأطباق ولحق بهم فؤاد وساعدهم، فلما انتهوا نادوا رقية ومحمد واجتمعوا حول طاولة وُضع فوقها طعام حقيقي، محاشي وملوخية وأرانب ورقاق باللحم، فلما جلست ماجدة سألت رقية: بتحبي المحشي يا رقية؟
- أنا باحب كل الأكل طالما مستوي.
قالتها بتلقائية فضحكوا جميعهم وعلق ضياء: لا، حلوة.
احمر وجهها خجلا لكنها لم توضح أنها لم تمزح بل تذكرت طعام «أم زينة» لا أكثر. شرد محمد وبدا ساهما فسألته رقية: مالك؟
وأردفت ماجدة سائلة: الأكل مش عاجبك؟
- لا ده حلو قوي زي أكل مامتي.
- قريب إن شاء الله يا حبيبي تروح عندهم.
فكرت رقية صرف انتباهه فسألته: أنت مش بتحب الملوخية يا محمد؟
- بحبها قوي بس مش هاعرف آكلها لوحدي.
- طيب أنا هأكلك.

سحبت رغيفا وقسمته وغمست لقيمات الملوخية وأطعمت محمد بفمه فابتسمت ماجدة ونظرت لضياء الذي تعجب وابتسم دون تعقيب.
ولم يصمتوا؛ إذ حكى فؤاد عن أول صورة التقطها لماجدة فحثها لتحكي عن أول مرة ذهبت فيها للاستوديو، ثم توالت ذكرياتهم عن الصور كصور متتالية. بعد الغداء جمعهم الصالون وأطباق الحلوى وأكواب شاي القرنفل. وعصرا سأل ضياء محمد أن يرافقه ونزلا ومعهما فؤاد للحديقة فوقفت رقية بالشرفة تطالعهم ثم جاورتها ماجدة، كان الثلاثة يلعبون بالكرة سويا كجد كأب كابن، ثلاثة تجمعهم «كأن» وتوحدهُم. حتى كان لهاتفه رأي آخر باتصال أتاه فتركهما للحظة رد فيها ثم عاد بجوارهم متجهما، وقف بجوار فؤاد وهمس بأذنه ثم تركه مع محمد وصعد السلالم ركضا، أقلق رقية فغادرت الشرفة وكانت باستقباله فقال: عايزينا في القسم.
- لاقوا أهل محمد؟
- مش عارف، الظاهر في حاجة.
- هما هيقلقونا ليه؟
علقت ماجدة فقال: هنروح ونشوف، بس هنخلي محمد معاكم لحد ما نرجع.
لاهى فؤاد محمد إذ قال أنه سيعلمه الشطرنج حتى عودتهما، وبسيارة ضياء تلقفتهما احتمالات عدة كانت أغلبها إيجابية حتى وصلوا.
أول ما جمعهما مكتب الضابط المكلف بالبحث قال: احنا وصلنا لعيلة محمد.
ولم يفرح رقية كلامه إذ شعرت أنها ستفتقد محمد، بينما ضياء رد مبتسما: طيب كويس الحمد لله.
- أتمنى يكون كويس.
- ليه خير؟
- البحث وصلنا لأن محمد كان في دار رعاية وبعمر سنة كفلته أسرة بديلة، أسرة الأستاذ سليم محمد سليم أبو النوير بس للأسف احنا معرفناش نوصل لأستاذ سليم.
- مش فاهمة حاجة، يعني محمد والده ووالدته الحقيقين فين؟
تساءلت رقية فأوضح: محمد مالوش أم وأب، لقيط يا أستاذة رقية، محمد مجهول النسب.
غابت الصورة حتى احتل الأبيض كل الشاشة ثم كُتب بالأسود
ظهرت مجموعة أطفال في حديقة يتسابقون حول أرجوحة، يتشاركون بعضهم اللعب مجتمعين في دائرة وصوت غنائهم عالٍ
- توت تووووت توووت تووووت -
توت توت قطر زغنطوط
توت توت في الليل بيفوت
توت توت ويعدي علينا
توت توت في ميعاد مظبوط
- وتوت تووووت توت توت توت -
يدورون في دائرتهم ثم يجلسون على الأرض.. باب الدار يفتح، تظهر عدة سيدات يركض الأطفال نحوهن.. يظهرن وهن يحملنهن ويلعبن معهم.. ثم تظهر الصورة وهن يحملن حقائبهن ويرحلن فيتوسط الأطفال الشاشة وهو يلوحون بأياديهم.. وتقترب الصورة أكثر حتى تقف أمام عينين دامعتين لصغيرة تظل تلوح بيدها حتى بعدما يفارق أصحابها مكانهم وكأنها تلوح للفراغ..

وبالتزامن مع صورتها علا صوت أنثوي وقال:
«ليه الاحتضان في مصر؟»
«ببساطة عشان الأطفال مكانها البيوت
وعشان أنا عمري ما هانسي اليوم اللي روحت أستلم فيه بنتي ليلى،
ساعتها حسيت إني شوفت عالم موازي لعالمنا»
«أطفال مقفول عليهم في أوضة زي سجن من غير حياة، من غير ما عيونهم تشوف الشمس، يومها رجعت مقررة مش هتخلص الحكاية على إني آخد بنتي وأسافر،
لا دي الحكاية هتبتدي»
يمنى دحروج
رئيس مجلس إدارة
مؤسسة الاحتضان في مصر
ظهرت «يمنى» مرتدية جاكت أصفر بحجاب أبيض تتوسط صورتها الشاشة وفي الخلفية صورة تجمعها بابنتها ليلى.. وبعدما اختفت ظهرت صورة لسيدة أخرى «راندا» مرتدية الأزرق وحجابها لبنى وبدأت كلامها:
«بدأنا كمبادرة قبل إشهار المؤسسة، المبادرة اتأسست بالظبط في ٢٨ ديسمبر ٢٠١٨»
«بدأنا كصفحة على الفيس بوك»
«وبعدها عدد الناس الداعم للمبادرة بدأ يزيد
فاتكونا كفريق وحولنا الصفحة جروب وبعدها بقى فيه لينا جروبات على الواتساب
وبدأنا بقى التخطيط
بدأنا بسؤال؛
«إيه أكتر خدمات عايزين نقدمها للناس؟ فبدأنا بمبادرة الإرضاع، وتوفير أجهزة الإرضاع، وكلها بجهودنا الذاتية وبدون أي ربح مادي»
حاليا الخدمات اللي بقينا مسئولين عنها:
جروب الفيس بوك للإجابة على الاستفسارات الخاصة بالاحتضان..
وجروبات دعم الواتس آب للتواصل السريع مع الأمهات والإجابة على كل الاستفسارات.. والدعم النفسي على مدار اليوم..
مبادرة الإرضاع نفسها جزء منها..
توفير أطباء متخصصين في الإرضاع يحددوا بورتوكولات الإرضاع..
ومساعدة الأمهات على إتمام الرضاعة..
وجروبات دعم الإرضاع على الواتس آب خاصة باستفسارات الأمهات وكدا..
فيه كمان إصدار أول مجموعات قصصية للأطفال عن الاحتضان؛دي لمساعدة الأسرة في تعريف الحقيقة للطفل بطريقة علمية مبسطة..
وجروب الدعم النفسي لأسر الاحتضان في مصر..
وفيه بنوفر أخصائيين نفسيين وأخصائيين دعم نفسي
لمساعدة الأسر في فهم وتخطي أي مشاكل نفسية للطفل
-

وفي مسئوليتي أنا بقى أعداد الاتفاقيات وبروتوكولات التعاون ومذكرات التفاهم اللي بتعقدها المؤسسة مع الجهات الأخري سواء مؤسسات مجتمع مدني أو جهات حكومية وكدا.
راندا عادل
مدير التخطيط المؤسسي
والجودة وإدارة الأزمات
للمؤسسة الاحتضان في مصر
كتب اسمها على اليسار بالأبيض، ثم ظهرت صورة لسيدة أخرى «لمياء» كانت ترتدي الوردي والأبيض ثم بدأت كلامها:
«الاحتضان بالنسبالي في الأول خالص
كان موضوع شخصي شوية
اشتياق للأمومة وأهدافي نفسها كانت شخصية»
«كنت عايزة بيبي يكون كل حياتي أنا وزوجي، ده كان قبل بنتي
لكن بعدها فيه حاجة اتغيرت كأن الحياة ردت لي
بقيت بافكر في نفسي، في صحتي، في ازاي أربي بنتي كويسة»
«أنا أم ودي مسئوليتي، وجزء من المسئولية دي بيئة محيطة فاهمة وواعية»
لمياء نصار
المدير الفني
لمؤسسة الاحتضان في مصر
غابت لمياء وعادت يمنى:
«مش كل الفريق أسر كافلة»
«في ناس كتير متحمسة تشاركنا»
«وحتى لو الطرف اللي قدامي مش عايز يحتضن»
«يكفيني دعمه وتشجيعه للفكرة
-
«لو هابدأ من عند أكتر حاجة محتاجينها»
«هاقول ننشر الفكرة أكتر؛ عايزين الناس تفهم وتعرف عن الأطفال»
«ونفسي يجي يوم والمجتمع ما يلومهومش على ذنب هو مش ذنبهم»
«ونفسي نشيل من قاموسنا كلمتين «مجهولين النسب» و«لقيط»
ثم عادت لمياء:
«المسئولية هتبدأ من الأفراد»
«احنا جمعتنا أحلام متشابهة وهدف كبير»
«مستقبل ولادنا يستاهل»
«ومش بس عشان ولادنا؛ عشان إخواتهم في كل دور الرعاية»
«دي أول حقوقهم»
«إن الناس تفهم»
«يعني إيه احتضان؟»

اختفت الصور وظهرت صور لأطفال في الشوارع ممسكة بأيادي آبائها، وطفل يمسك بيد والدته، وصورة عند مدخل مدرسة وأطفال تتسابق لتدخل من بوابتها ثم ظهر صوت ذكوري وشيئا فشيئا ظهر أحد مشايخ الأزهر:

إلى الآن لا يزال هناك بيننا من يعتبر الكفالة حرام شرعا

ظنا منه أنها هي التبني

وده خطأ؛ لأن الفرق بين الاتنين كبير وبيترتب عليه ما هو أكبر من سوء الفهم؛

التبني حرام شرعا وهو أن يضم الشخص الطفل لنسبه؛ أي ينسبه لنفسه ويسميه باسمه وذلك يترتب عليه اختلاط للأنساب وضياع للحقوق زي الميراث مثلا..

والتبنى كان معروفا عند العرب في الجاهلية..

إلى أن جاء الإسلام وحرمه؛

(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما)

أما الكفالة فهي الأصل لأن في وقت النبي صلى الله عليه وسلم

لم يكن هناك دور رعاية ترعى

الأيتام كان مكانهم هو البيوت

فالأصل إن مكان الأيتام بيوتنا

حتى أنه قال صلى الله عليه وسلم «من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة»

لكن يبقى هنا تأصيل لمعنى أهم وأعمق..

معنى الكفالة..

معنى أن تربي ببيتك طفل..

لا يعني توفير طعام وملبس ومسكن..

أن تكفل هو أن تعرف كيف تربي،

أن تعرف كيف أن تكون أبا، والزوجة تعرف كيف تكون أمًّا..

مش الاحتياج المادي فقط..

ولا الاحتياج العاطفي؛ إنما كل أوجه الاحتياج..

وإقرار المسئولية أنا ده ابني فاعلم أني سأقف بين يدي الله لأسأل عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٥)

- «مسافر»
كانت أكثر إجابة غريبة وغير متوقعة حظي كلاهما عليها، بجوار كلمات أخرى آثرت رقية الصمت كي لا تبدو غبية وهي تسأل عن معانيها، عدا كلمة واحدة؛ «لقيط»
عندما عادا للسيارة اجتاحتهما حيرة، وأول سؤال تبادر لذهنهما كان؛ أيعرف محمد كل هذا؟
أيعرف أن والديه مسافران لدولة أخرى؟
أيعرف أنهما بديلان يكفلانه؟
أيعرف من يكون؟
أم أن التيه قدره وعنوانه؟
لم يستطيعا الصمت، التهمته الأسئلة حين بدأت بـ
- «هنعمل إيه دلوقتي؟»
حتى وصلت بهما إلى: مش جايز لو قررنا ندور على عيلة محمد بنفسنا نقدر نوصل لحاجة؟
ولما كان آخر الأسئلة التي سألتها رقية بلا إجابة، حل بعقل ضياء سؤال أهم؛ إذ فكر فيما سيقولانه لمحمد عند عودتهما، اتفقا على كذبة بيضاء كانت أنهما ذهبا في أمر يخص عملهما وعادا بعدما جلبا معهما حلوى وشوكولاتة.
لكن وجهيهما وبهتانه أكد أن الكذب واضح، استأذنتهم رقية في الرحيل فرافقها ضياء لإيصالهم وفي طريق عودتهم غلب محمد النوم على الأريكة الخلفية، فلما وصلوا لبيت رقية التفت كلاهما وتأملاه طويلا، ابتسم ضياء للشبه الذي يجمعهما وتنهدت رقية ومسحت على يديه وقالت: محمد ده جميل قوي، مش عارفة هو بدري إني أقول إني هافتقده لو مشي.
رفعت يده لشفتيها وقبلتها وابتسمت فانتبهت أن ضياء كان يراقبها مبتسما، فارتبكت وفتحت باب السيارة ونزلت فنزل بعدها وقال: أنا هاشيله بدل ما تصحيه.
سبقته لتفتح لهما باب الفيلا ودخل خلفها حاملا الصغير فحملته عنه أم زينة وصعدت به لغرفة رقية، وبعد رحيل ضياء صعدت رقية لغرفتها ودثرت محمد مبتسمة وقبلت ثغره وجاهدت عينيها النوم لكن بلا جدوى، ضجت الأفكار بعقلها، ففارق جسدها مضجعها وجلست أمام حاسوبها بعدما كتبت على ورقة صفراء ثلاث كلمات كانوا سبب أرقها؛
«أسرة بديلة»
«كفالة»
«مجهول النسب»
وبدأت بآخرهم؛ خطته في مستطيل جوجل وبحثت فكانت أحد النتائج مقالا بعنوان: «الحالة النفسية للطفل مجهول النسب»
قرأته كلمة كلمة في محاولة منها لفهمه، فعرفت أن كل مرحلة يمر بها الطفل لها آثارها، فترة الحمل والولادة الطفولة وبالتأكيد المراهقة.
«وتحتد الأزمة فسدي فترة المراهقة حين يتأكد المراهق أنه مجهول النسب، خاصة أن هناك ما يسمى بأزمة الهوية يمر بها كل مراهق لتتحد كينونته وأهدافه وتوجهاته فى هذه المرحلة من العمر،

وإذا كان المراهق العادي يمر بهذه الأزمة مع بعض الصعوبات المحتملة فإننا نجد أن المراهق مجهول النسب يعانى بشدة لأن أصل الهوية الشخصية والعائلية مفقود؛ فهو لا يعرف من أبوه ولا أمه، وبالتالى لا يعرف إلى من ينتمي، فى الوقت الذى يرى أقرانه ينتمون إلى آبائهم ويفخرون بانتسابهم لعائلاتهم، أما هو فيشعر أنه أشبه ببناء بلا أساس»

وفي مقال آخر عُنون بـ«مجهولي النسب» ٢٠ ألف طفل يبحثون عن «إثبات»

استوقفتها آخر فقرتين.. «حقوق الطفل»

حيث قرأت عن دكتورة هناء العناني..

«إن أفضل مرحلة لإخبار الطفل بحقيقة كونه مجهول النسب هى بين سن الثانية وحتى السادسة، حيث يبدأ الوالدان بتقديم إيحاءات للطفل بأنهما ليسا والديه الحقيقيين، وتعتبر السنة السادسة هى الأنسب، لأن الطفل يبدأ في هذه السن بالتمركز حول الذات وتتشكل لديه الانفعالات والأحاسيس والصورة الذهنية وبداية التفكير المنطقى وتكوين الشخصية.»

وأضافت: «الشخص مجهول النسب الذى يكون لديه علم بحقيقة نسبه منذ الطفولة، ينشأ شخصًا سويًا يركز على ذاته، ويتصرف اعتمادًا على طريقة التربية التي يتلقاها في صغره، ولا يعانى من أى مشكلات نفسية، ويكون قادرًا على مواجهة المجتمع، بعكس الشخص الذى يعلم بحقيقة نسبه في مرحلة متأخرة من عمره، حيث يبدأ عنده حدوث اضطراب سلوكى، وانخفاض في تقدير الذات، خاصة في فترة المراهقة، حيث يبدأ الشخص بالتمرد وعصيان الأوامر ولوم الوالدين البديلين ويصل إلى إيذائهما وجرح مشاعرهما، وقد يتفاقم الأمر إلى حدوث اضطرابات نفسية لديه، وإصابته بأمراض عضوية مثل الصداع المزمن والتبول اللاإرادى.»

خفق قلبها من صدمة ما قرأته وأكملت البحث، عادت لمستطيل جوجل وكتبت «أسرة بديلة»

وأول نتيجة كانت موقع وزارة التضامن الاجتماعي، وبعد واجهته ذات الأحمر القاني توالى عنوانان..

«تفاصيل الخدمة»

«نظام الأسر البديلة»

قرأت الصفحة، فتحت الباب على هوة، أدركت أن للعالم وجوه أخرى، كانت أفلام عطيات الأبنودي قد عرفتها على جزء، منه لكنها لم تتوقع بقيته

مررت عينيها مرتين على:

«الشروط والأحكام»

واستوقفها عاشرها؛

١٠- أن تتعهد الأسرة كتابة بالحفاظ على نسب الطفل

والثامنة عشر؛

١٨- تلتزم الأسرة البديلة بأن تخطر إدارة الأسرة والطفولة المختصة فورا عن كل تغيير في حالتها الاجتماعية أو في محل إقامتها وبكل تغيير يطرأ على ظروف الطفل محل الرعاية مثل تشغيله في عمل أو إلحاقه بمدرسة أو هروبه أو وفاته أو زواج الفتاة.

ولا يجوز للأسرة البديلة السفر إلى الخارج -بصحبة الطفل محل الرعاية أو بدونه- إلا بموافقة مكتوبة من إدارة الأسرة والطفولة بمديرية التضامن الاجتماعي المختصة.

نسخت هذا الشرط وفتحت موقع واتس آب على حاسوبها وأرسلته لضياء وكتبت

- «هو ده معناه إن سليم لما سافر ساب الولد مع حد من وزارة الشئون عارفاه.. طيب معرفوش يوصلوله ليه؟»
- «أنتِ لسه صاحية؟»
- «مجاليش نوم»
- «أنا لقيت ده»
html.٥٤٨٨٧٦/http://alrai.com/article
قامت بفتح الرابط فوجدت مقالا بتاريخ ٤- ١١- ٢٠١٢
عنوانه؛ معرفة الأطفال المحتضنين لهويتهم الحقيقية تجنبهم الاضطرابات النفسية.
- «قرأتيه؟»
- «أيوة»
- «تفتكر محمد عارف؟»
- «مظنش»
- بس عارف دي أول مرة أعرف إن في حاجة اسمها أسرة بديلة
- «أنا عارف من زمان»
- «يا بختك»
- «أنا النهاردة في القسم قلقت أبين إني مش فاهمة حاجة»
- «بس ايه العالم ده؟ هو فيه حد ممكن يرمي ولاده؟»
- «فيه طبعا، أنا شخصيا أعرف اتنين رموا ابنهم وكملوا حياتهم عادي جدا»
- ولقى أسرة بديلة؟
تثاءب وفرك عينيه وهو يطالع سؤالها وفكر للحظة أن يخبرها لكنه تراجع على الفور وكتب:
- أيوة وعاملوه كأنه ابنهم وأكتر.
- تخيل أنا شيلت همه. وخوفت تقولي لا!
غلبه الضحك فأرسل ثلاثة وجوه ضاحكة وكتب
- أنتِ شايلة هم الكون يا رقية؟
أرسلت ثلاثة وجوه ضاحكة بينما شعر هو بثقل جفنيه وهو ينتظر منها رسائل أخرى وظل ينتظر حتى فتح عينيه فجأة فعرف أن الصباح أدركه وهاتفه لا يزال بين يديه.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
رافق فؤاد للاستوديو، وجمع الصور التي التقطتها معه في مجلد بعدما أوصل الكاميرا بحاسوبه ثم جلس يشاهدهم، راقبه فؤاد فلمح الصورة التي جمعته مع رقية ومحمد وقد بدأ بها ضياء كأول صورة يضبط ألوانها فابتسم دون أن يعقب. اختار أكثر من صورة لمحمد وبحث عن صفحات الأطفال المفقودين على «فيس بوك» وأرسل لهم الصورة مع اسم محمد واسم أبيه الحقيقي؛ سليم محمد سليم أبو النوير، وأشار أن الحادث كان بالقاهرة قرب محطة رمسيس، ثم ترك رقم هاتفه في حال توصلت أي صفحة لشيء.
سمع صوت رسائل من الواتس آب فأخرج هاتفه في لحظتها ليرد، وجدها رسائل من هادي فلوى شفتيه، وهو يقرؤها
- «التصوير بكرة الساعة ٩»

- «تمام»
- «ضياء أنت كويس؟»
- «ايوة أنا تمام»
- «أتمنى، أصلي حاسس إنك مش معانا خالص اليومين دول»
أدام النظر في الرسالة ووجم، استوقفه أن هادي مكترث، لطالما ضايقه أن هادي ظل بالوسط بينه وبين بلال، صديقهما الثالث الذي أحب حبيبته بعدما وقف بينهما في المنتصف كمصلح ثم احتال زوجا لها..
يكره الوسط حالًا أو صفة، تماما كما يكره الهوامش، فالعلاقات إما حقيقية أو عليه طمرها
- «روحت فين؟»
- «أنا كويس يا هادي متقلقش بكرة هاكون معاكم بإذن الله»
لم ينتظر من هادي رسائل أخرى وفتح المحادثة التي تجمعه برقية، أعاد قراءتها فانتبه أنه لم يجب سؤالها عن سليم ، فأرفق الرسالة بتعليق
- «لسه شايفه دلوقتي»
- «طيب كده احنا ممكن نزور احنا وزارة الشئون وندور؟
- «مش عارفة»
«ممكن نسأل»
- «طيب أنا هاسأل»
بعد دقيقة لم ترسل فيها رسائل، أرسل هو كل الصور التي التقطها فؤاد لهم، ثم أخبرها بما فعله، وأنهيا محادثتهما باتفاق أن يزورا وزارة التضامن الاجتماعي ليستفهما عن وضع محمد، بعد غد في العاشرة صباحا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمساء اليوم التالي كانت لا تزال منخرطة فيما تبحث، منبهرة بفكرة؛ تظن أن كثيرين مثلها لم يسمعوا حتى عنها، آخر ما سمعته كان فيديو بتاريخ ٢٥ أكتوبر ٢٠١٩ «الفرق بين التبني والكفالة»
منه أدركت أن محمد قد أخذ اسم سليم الأول واسم سمية، أما بقية الاسم فوفق الشرع لا يجوز نسبه.
انتهت من سماعه وقامت من أمام حاسوبها،نظرت لسبورتها البيضاء وقررت نزع كل أوراق أفكارها المبعثرة عنها فلم يبق سوى الجملة: «بحلم على قد ما معايا»
على يمينها صورة جدتها، وعلى يسارها رسمة محمد، فتنهدت مبتسمة، وبدأت في تثبيت أوراق جديدة «sticky notes» عليها كل ما جمعته خلال يومين عن الأسر البديلة ودور الرعاية وقد لمعت بعينيها الفكرة رغم أنها لم تتبلور بعد لكنها بدت وكأنها ما حلمت بأن تقدم مثله.. انتبهت في غمرة انشغالها أنها تناست محمد فاتجهت لغرفة الـliving مسرعة، كان محمد يشاهد فيلم «inside out» جلست بجواره وسحبت طرفا من بطانيته وسألته: مش جعان يا محمد؟
- جعان.
- طيب هاخلي أم زينة تحضرلنا العشا!
خرجت ووقفت عند السور المحيط بسلالم الطابق الثاني ونادت أم زينة وطلبت منها إعداد العشاء، ثم عادت لتجلس بجوار محمد وتابعت معه جزءا من الفيلم قبل أن تسأل: عجبك الفيلم يا محمد؟
- قوي.

لاحظت اقتضاب إجاباته فسألته: أنت في حاجة مضايقاك؟
- تؤ.
ظل محدقا بشاشة التلفاز فقامت من مكانها وجلست قبالته وكررت: في إيه؟ في حاجة مضايقاك؟
لوى شفته السفلية ثم قال: أنتِ كان وراكِ شغل كتير قوي، وأنا قعدت لوحدي ولما ناديتلك مردتيش عليا، أنتِ زهقتِ مني؟
- يا خبر، أنا آسفة جدا.
تضايقت من غرقها في عملها وفطنت لمعنى أن تكون مسئولا عن شخص ربما أنت أمانه وونسه..
لفت ذراعها حول كتفيه وقالت: طيب قل لي أصالحك ازاي؟
ابتسم وقال ممتنا: هو أنا مبسوط إنك مش عايزاني أزعل.
ضمته أكثر ودغدغته فتعالت ضحكته، بعدها تناولا عشاءهما وهما يكملان ما تبقى من الفيلم ثم عادا لغرفة رقية، تجاورا على سريرها وبيدها كانت تلاعب خصلات شعره وتطالع فراغ غرفتها وقد امتلأ حياة وبهجة، فنظرت نحوه وطلبت: محمد؛ ممكن تحكيلي عن مامتك؟
تمدد على جانبه الأيمن، ليبصر وجهها في ضوء الغرفة الخافت ثم قال: هي عينيها كانت بني وشعرها أسود شوية.
- شبه حد من الممثلين؟
- أيوة شبه علا.
- علا مين؟
- عارفة التمثيلية اللي كل شوية يجيلها عريس ويمشي.
فطنت لمقصده فسألته: قصدك هند صبري؟ استنى استنى.
جلبت هاتفها وكتبت اسم هند صبري في جوجل فلما ظهرت صورتها سألته: هي دي؟
- أيوووووووة هي دي، بس ماما كانت أطول ووشها أكبر.
تأملت الصورة فخفق قلبها وكأنها قابلتها وجها لوجه ثم قال محمد: تعرفي إنها وحشتني قوي، هي ممكن تكون بتعيط دلوقتي؟
أمسكت وجهه بين يديها وقالت: إن شاء الله ترجعلها قريب وتفرحوا بوجودكم مع بعض.
تنهد دون أن يعلق فقالت: طيب كمل كلام عنها، كنتم بتعملوا إيه في يومكم؟
- اممم كنا بنذاكر شوية ونحفظ قرآن الصبح وبعدين نلعب كتير جدا وعقبال ما تعمل الغدا ساعات كنت باتفرج على سبيستون وساعات كنت باساعدها في الأكل.
- شاطر والله، كنت بتساعدها ازاي؟
- كنت بابقى مسئول عن الحاجات اللي في التلاجة أنا اللي باجيبهالها، آه وقبل ما ننام كانت بتحكيلي حدوتة.. لا، حدوتات كتير قوي.
- زي إيه؟ فاكر حاجة منهم؟
- mother of choco، تعرفيها؟
- لا احكيهالى.
اعتدل في جلسته ليكون قبالتها وقال مبتسما: كان ياما كان يا سادة يا كرام ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام.
- عليه الصلاة والسلام.

- كان مرة في عصفورة حلوة وصغيورة واسمها شوكو، كانت عايشة لوحدها في الغابة وفي يوم قررت تدور على مامتها، فراحت للزرافة وسألتها أنتِ لونك أصفر زيي، أنتِ مامتي؟ قالتلها لا أنتِ عندك جناحين وأنا مش عندي فأنا مش مامتك، مشيت زعلانة وراحت عند البطريق وسألته أنت عندك جناحين زيي، أنت مامتي؟ البطريق بصلها وقالها أنت عندك خدود كبيرة وأنا مش عندي فأنا مش مامتك.. زعل جدا وراح لسيد قشطة وقاله أنت خدودك كبيرة زي خدودي، أنت مامتي؟ بصله كويس وقاله لا أنت عندك رجلين مخططين وأنا معنديش، أبقى مش مامتك وامشي بقى وبلاش تضايقني، مشي العصفور في الغابة زعلان وقال وهو بيعيط أنا نفسي أروح لمامتي.
ملأت الدموع عيون محمد فمحتها رقية بيديها وطفرت دموعها، وأكمل: بعدها العصفور قابل الدبة ولما شافها قال دي مستحيل تكون مامتي دي مش شبهي، ووقف يعيط جرت عليه الدبة وقالتله أنت بتعيط ليه، حكالها حكايته فسألته: لو كنت لقيت ماما كانت هتعملك إيه؟
قالها: كانت هتحضني سألته: زي كده.
نهض على ركبتيه وفتح ذراعيه وأشار لرقية أن تفعل فحضنها، ضمته إلى قلبها وربتت على ظهره فظل بحجرها وأكمل: سألته الدبة وإيه كمان، قالها: وكانت هتبوسني، سألته: زي كده؟
وضع قبلة على خد رقية فوضعت قبلة على خده وضحكت بعينين ملأهما الدمع فتابع: سألته إيه رأيك أكون مامتك؟ شوكو استغرب وقالها: بس أنتِ مش شبهي؛ هينفع تبقي مامتي؟ حضنته وقالته مش لازم نكون شبه بعض عشان نكون ماما وابنها، أنت من النهاردة هتكون ابني وأنا مامتك، وأخدته من إيده وروحوا سوا وعاشوا مع إخواته البطة والأرنب والسلحفاة في بيت كبير، كلهم كانوا مختلفين بس ده ممنعهومش يكونوا عيلة كبيرة.
نظر لها فوجدها تبكي فمسح بكفه دموعها وسألها: أنتِ بتعيطي ليه؟
- مامتك اللي كانت بتحكيلك الحدوتة دي؟
- أيوة، حكتهالي كتير لحد ما حفظتها، هي معجبتكيش؟
مسحت عن وجهها الدموع وقالت: لا بالعكس دي حلوة قوي، يلا ننام بقى.
وضع رأسه على الوسادة فدثرته وشردت وهي تمسح على شعره حتى نام. قامت واتجهت للحمام الملحق بغرفتها وأمام مرآته ميزت ملامحها التي لم تتأثر بمسحة الحمرة بعينيها ثم انسابت دموعها وزادت وهي تلمس خاتم خطبتها الأكبر من إصبعها وهي تتذكر
« مش لازم نكون شبه بعض عشان نكون ماما وابنها»
«كلهم كانوا مختلفين بس ده ممنعهومش يكونوا عيلة كبيرة»
وحده التقبل كان كل ما افتقدته، أناس يحبونها ويرونها تستحق محبتهم واحترامهم، دون أن يقارنوها بوالدتها التي كانت أجمل، فتتحسر والدتها على قدرها بفتاة خمرية ذات شعر ممووج، قحطت أرضها ظماً للمحبة، ويوم رويت كانت بكلمة تكتب بحروف أربعة مجتمعة فتقرأ «بحبك» لكن بلا معنى.. بلا حياة.. بلا طعم، ككل شيء في حياتها.. كالأبيض والأسود والأفكار التي كانت تملأ سبورتها ولا تجرؤ على عرضها على ياسين مخافة رفض تنفيذها. انحنت أمام الصنبور وطمرت وجهها بالماء فهدأت ثم جففت وجهها بمنشفة وعادت تجلس على مكتبها، أمسكت هاتفها وفتحت الواتس آب فلم تجد رسائل من ياسين، لم تجد له وجودًا بحياتها ولم تعرف لعلاقتهما معنى، قرأت رسائلهما السابقة فتدفق في وجهها سيل من الرسائل الباردة، أوامر عمل، ملاحظات بتعديلات، تأنيب على مواقف أو ردود

أفعال، ورسائل اعتيادية من باب الواجب وقلوب زرقاء تنهي أغلب المحادثات، واجب يفعله ياسين ثم يعلق عليه والديها:
- «ياسين بيكلمك كل يوم يطمن عليكي عايزة إيه تاني؟»
يعرف قبلها أن شكواها بكل المرات السابقة كان مصيرها التهكم، يعرف أن قلبها لم يسع يوما سوى الوحدة، يعرف ويجيد التجاهل طالما أنها مضمونة ومتواجدة، اختلطت بداخلها مشاعر شتى؛ ارتباك وحزن وغضب، وقررت أن تهاتفه، اتصلت فظل الرنين متواصلا بلا توقف حتى انقطع الاتصال فكررت المحاولة فلم تجد إجابة. ففتحت محادثة الواتس آب وكتبت:
«مبروك تصوير الإعلان»
«شوفت الصور على الاستوري بتاعتك»
رأت علامتي الصواب يتلونان بالأزرق فأدركت أنه تعمد ألا يرد على اتصالها وأنه لن يرد على رسائلها، فضغطت على زر التسجيل وقالت:
- «أنا عارفة إنك مش هترد يا ياسين .....
لم تبك رغم تجمع الدموع بعينيها وهي تكمل:
- متأكدة إنك مش هتهتم ترد ولا تسمع ... بس أنا هاتكلم ....
انقطع التسجيل فرأت العلامتين الزرقاوين دون أن يسمع فشعرت بغصة تحرق صدرها بأن كلامها لا يعني شيئا فقررت أن تضني به وتمنعه عنه وكتبت بكل اقتضاب:
- ياسين أنا مش عايزة أكمل، شوف تحب تيجي تاخد الشبكة امتى؟
ودون أن تزد كتابة رسائل أخرى خلعت الخاتم من إصبعها، علا رنين هاتفها بشكل متواصل وقد توسط اسم ياسين شاشته فقررت هي ألا ترد ثم حظرت رقمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

باليوم التالي وقبل زيارتهما للشئون طلبت منهما ماجدة أن يتركا لها محمد حتى عودتهما من الزيارة، فاستقلت رقية «أوبر» برفقة محمد حتى منزل ضياء وتركاه بصحبة ماجدة ورحلا. عندما جمعتهما السيارة بدت رقية واجمة وساهمة، استغربها ضياء قرر أنه هو من سيبادر بالكلام فقال: قريت الحاجات اللي بعتيها.
هزت رأسها إيجابا ولم تعلق فشعر أن السؤال الوحيد المناسب هو -مالك؟- لكنه تجاهله كابحا فضوله، إذ كاد يحرق صدره وهو يلاحظ حزنها وازداد عندما لمح إصبعها فارغا من خاتم خطبتها، تذكر طريقة ياسين مع نادين وظن أنه أنهى خطبته برقية لذا بدا متباسطا في مزاحه وكلامه لكنه ووفق عهد قد قطعه لن يسأل، لن يعلق بين اثنين كمفسد أو مصلح. بعد دقيقة مرت كدهر أدرك أنه ما عاد يطيق صمتهما فسألها عن محمد، أسئلة اعتيادية تبعتها إجابات مقتضبة، كفاه سماع صوتها حتى وصلا وجهتهما.
وزارة التضامن الاجتماعي - قطاع الشئون الاجتماعية
كانت وجهتهما «إدارة الأسرة والطفل» وضياء من تولى الأمر،إذ منح الموظفة اسم «سليم» بالكامل وحكى كل ما يتعلق بأمر محمد وانتظر مساعدة فأوضحت الموظفة: بص يا أستاذ ضياء طالما الشرطة موصلتش لحاجة يبقى كدا الشئون اللي تابع لها الطفل برضو موصلتش لحاجة وكده يبقى الأب سافر من غير ما يبلغ الشئون بسفره وساب الطفل مع حد من أهله ولما الولد تاه محدش اتكلم.

سمعت رقية فصدمت وسألتها: ببساطة كده؟ مش أكيد في مُسائلة قانونية يعني في مسئولية على الأسرة.
- ما هو أقصاها هيسحبوا منه الطفل ويرجعوه الدار.
وكلاهما رفع حاجبه دهشة وحدقا بها وعلق ضياء: دار إيه؟ قصدك الطفل يرجع الملجأ تاني؟ وأنتم كده بتعاقبوا الطفل ولا الأسرة؟
- والله يا جماعة دي القوانين واحنا دورنا نطبقها.
أدركا أن اللاشيء هو المنتظر، فوقف ضياء وشكرها فاستوضحت قبل رحيلهما: أنا بس كنت عايزة أسألكم على حاجة، هو الولد حاليا معاكم؟
- أيوة.
- طيب الله يباركلكم حاولوا أنتم تلاقوا أهله بدل ما الولد يرجع الدار، أصل طالما مش عارفين نوصل لأهله هيبقى للأسف مفيش قدامه مكان إلا دار الرعاية تاني.
التفتا ليخرجا فلمحت رقية سيدة تمنح أوراقها لموظفة أخرى وتسألها: كده هنستلم جواب المشاهدة ... الله يكرمك ويفرحك ..... أنا مستنية اليوم ده من سنين والله.
لاحظ ضياء ما لاحظته فسألها: دول بيخلصوا أوراق كفالة؟
- شكلهم كده.
حملتهما خيبة الأمل حتى السيارة فتجاورا محبطين، وكادا يصمتان لولا اتصال ماجدة التي أصرت على ضياء قائلة: تجيب رقية معاك عشان نتغدا سوا.
سمعتها رقية فعلقت: لا مش هينفع أنا لازم أمشي على طول.
- طيب اديهالي.
مد هاتفه لها فانتابها الحرج وهي ترد: أيوة يا طنط .... كفاية احنا تعبناكي قبل كده.
رآها تضحك وكانت أول ضحكة تمس وجهها بسبب ماجدة ثم تابعت: أيوة بحبه.
التفت لها ضياء وابتسم بينما هي أكملت: حاضر يا طنط، تمام، خلاص حاضر.
أنهت المكالمة ومنحته هاتفه بعدما ملأت الابتسامة وجهها فعلق: مقنعة بطاطا، ملكة الإقناع.
كلاهما ضحك ثم قالت: ربنا يخليهالك.
سكت وبعد عدة ثوانٍ قال: أنتِ عارفة، ماجدة مش مامتي.
لم تلتف بوجهها بل استدارت بجسدها لتكون قبالته وقد تبددت بسمتها فتابع: خضيتك؟ بس تعرفي دي أول مرة أقول لحد، دايما اللي بيعرف كان بيبقى بشكل اضطراري.
آثرت السكون حتى تابع: طنط ماجدة عمتي وعمو فؤاد جوز عمتي، وبابا وماما عايشين، فاكرة اللي قولتهولك في الشات، أهم دول مامتي وبابايا.
لم تقل شيئا حتى مرت عدة ثوانٍ قالت بعدها: عمر ما كان هييجي في دماغي غير لما أنت قولتلي، كلام عمي فؤاد عن ذكرياتكم المرة اللي فاتت، مش بس حسسني قد إيه أنتم عيلة جميلة، ده فرحني قوي إن لسه في ناس زيكم، لسه في ناس بتعرف تحب، لسه فيه بيوت دافية.
ثم شردت وقالت وكأنها التقطت فكرة: عارف أنا خلاص لقيت الفكرة اللي هاعمل عنها الفيلم بتاعي.
- فيلم إيه؟
- أول فيلم ليا، فيلم وثائقي؛ المجال اللي طول عمري نفسي أشتغل فيه.
- حلو قوي وهتعملي الفيلم عن إيه؟

- عن طنط ماجدة وسمية، عن كل أم ربت وتعبت وقدرت تدي حب وحنية لولاد مش ولادها، إيه رأيك؟
- فكرة حلوة قوي.
تنهدت ونظرت أمامها وكأنها تتطلع لحلم يقترب بينما هو ابتسم وهو يراقب حماسها وقد قالت: عارف، لما محمد كلمني عن مامته حسيت إنها أم عظيمة، حاسة العيلة اللي كفلت محمد دي عيلة جميلة قوي، زي عيلتك أنت وعمي فؤاد وطنط ماجدة.
اتسعت ابتسامته ولم يعقب فأردفت: يا رب بس مامت محمد ترضى نعمل الفيلم.
- نعمل؟ تقصدي نشتغل سوا.
ابتسمت فابتسم ولنفسه اعترف أن «للنون» التي تجمعهما مذاق أشهى من حلويات ماجدة مجتمعة ولم ينتظر تعليق خشية صدمات الفهم الخطأ وقال: والله فكرة حلوة قوي يا رقية، وأنا معاكي أول واحد في التيم، جهزي الـstoryboard واحنا وراك يا ريس.
لم تستطع موراة فرحتها بينما هو فكر بتشغيل الراديو عله يجد شيئا يتحدثان بسببه ففاجأه صوت أنغام يعلو:
«لو حسيت إنك عطشان قوم لهوايا افتحله بيان»
فأغلقه مسرعا وقال مرتبكا: الحاج فؤاد ده بيظبط الراديو على حاجات غريبة.
فضحكت رغما عنها وآثر هو سلامة السكون حتى وصلا.
جمعتهم صيادية السمك وبعدها كان لرقية نصيب من شاي القرنفل مع كيكة البرتقال التي طلبت من ماجدة أن تكتب لها مقاديرها، بعدها جلس محمد بجوار ضياء على الكرسي الخوص بالشرفة وأمامهما جلس فؤاد وبينهما الشطرنج فوق زجاج الطاولة. راقبتهما رقية مبتسمة وعادت تكمل كتابة في نوتة معها وهي تسأل ماجدة: لازم البرتقان فريش؟
- آه وعليه عصرة ليمون بسيطة بيخلي النكهة حلوة.
طرق جرس بابهم فقام ضياء من مكانه وفتحه، علا صوت والي قائلا: قولنا نيجي احنا نقعد معاك طالما أنت ولا فارق معاك أصلا.
بهت وجهه ما إن أبصر هادي وتالين ووالي مجتمعين أمام الباب، ومن شدة اضطرابه ظل مكانه دون كلمة فقال هادي: مش هتقولنا اتفضلوا ولا إيه؟
- يمكن عنده ضيوف.
- اتفضلوا.
- «سلام عليـــ.....
قضمت قبل أن تكتمل وثلاثتهم يحدقون برقية فأكملتها عنهم: سلام عليكم يا جماعة ازيكم.
- تمام.
قال والي وأكمل: ازيك أنتِ يا أستاذة!
- الحمد لله.
لمحت تالين إصبعها فارغا من خاتم خطبتها فصدمت وسكتت بينما رقية نادت محمد وقالت لماجدة وضياء: طيب احنا لازم نروح، أشوفكم على خير.
- بدري كده يا رقية.
- معلش، أشوفكم وقت تاني.

كبت ضياء غيظه وهو يعض شفته السفلية وزفر وأشار لرفقائه: اتفضلوا.
ثم لحق برقية بعدما نزلت السلالم ووقف أمامها وقال: والله العظيم، أقسم بالله ما كنت عارف إن حد منهم جاي.
- من غير حلفان أنا عارفة.
ابتسمت فهدأ وسألها: يعني أنتِ مضايقتيش ولا زعلتِ؟
- لا، احنا عدنا مواقف أصعب من دي بكتير، أنا بس مش هاعرف أقعد معاهم فقولت أروح أحسن وأسيبكم براحتكم.
- طيب أنا هاوصلكم.
- لا احنا هنطلب أوبر متقلقش.
انحنى قليلا ليكون قبالة محمد وقال: طيب ينفع الدور اللي مكملش ده؟
- المرة الجاية هالعب معاك وهاغلبك.
- ماشي يا عم.
ظل معهما حتى غادرا ثم صعد، ومرت الزيارة ببالغ الثقل، وبصباح يومه التالي شعر بآثارها كونه رأى تالين أول ما وصل وهي تخرج من غرفة ياسين فأدرك عندها ما قيل له. ولولا رنين هاتفه ما كان ليبتعد، إذ وقف بنهاية الرواق قرب نافذة ورد: أيوة سلام عليكم.. فجاءه صوت رخيم لرجل أول ما نطق سأله: ده رقم الأستاذ ضياء سالم؟
- أيوة أنا.
- معاك محمد، محمد سليم أبو النوير، أنا جد محمد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٦)

قامت فجرا، نظرت لمحمد وابتسمت وهمست: صباحك جميل يا أحلى محمد.
قبلته ودثرته وجهزت نفسها ليوم مميز، اتجهت لركن القهوة وأعدت لنفسها كوبها المفضل وخرجت للتراس، احتستها ثم صعدت لغرفتها، جلست على مكتبها وأخرجت من أحد أدراجه أوراق بيضاء وكتبت في رأس أول صفحة بالوسط..
«فيلم عن الأسر البديلة»
موضوع الفيلم المشاهدون المستهدفون هدف الفيلم
وظلت تطالع الورقة ثم بدأت بالموضوع وهي تفكر في دوافع امرأة لتربية طفل ليس ابنا لها، وفكرت في ثلاثة نقاط؛
- المقدرة النفسية والتأهيل لها..
- أهل الأسر المحيطين بهم وتقبلهم للفكرة..
- الصعوبات التي تواجه الأسرة وخاصة الأم..
فكرت في أسماء محتملة بدرجة أم - أمهات .....
زفرت وتركت الاسم لاحقا وعادت للموضوع وكتبت:
«أكيد هنتكلم عن الكفالة-دور الأيتام -هنحتاج نزور دور أيتام - الريف والصعيد ووضع دور الرعاية فيهم»
نظرت للورقة وقالت: كدا بعدنا عن فكر الأسرة نفسها، طيب خلينا في الهدف.
في ورقة أخرى كتبت:
«معرفة الناس بالأسر البديلة والكلام عن الصعوبات اللي بتقابلهم نجيب أسرة وهي بتكفل طفل مثلا»
علقت: كده دي في الموضوع مش الأهداف، طيب الجمهور إيه؟
كتبت:
«أنا عايزة الناس العادية اللي مش عارفة عن الكفالة ووضع الأطفال في دور الرعاية تعرف، ميكونش دايما تفكيرنا عن علاقتنا بالأيتام في دور الرعاية زيارة في يوم اليتيم وهدايا ولعب وخلاص.
زفرت وقالت: لا ده كده هدف الفيلم، طيب تمام كده الورق ده بقى يتكتب تاني، أوكي.
ثم كتبت:
«وعايزين نشوف هنعمل سيرش على إيه + زيارات للدور + الشئون + أسر تحكي تجاربها»
فركت عينيها وشعرت أنها بحاجة لكوب قهوة آخر فقامت عن مكتبها فأبصرت «تاب» محمد يضوي بعلامة أنه بحاجة للشحن، فجلبته معها وأمسكت الشاحن بيدها الأخرى لتضعه بالكهرباء بغرفة مجاورة بعيدا عن محمد لظنها بخطورة شحن الهواتف بجوار الأطفال، وضعته ثم فتحته للتأكد من شحنه فلفت نظرها مكالمة فائتة من رقم لا تعرفه، رقمها بالتاب هو رقم قديم تركته فيه منذ مدة ولم تعد تستخدمه، التفسير الوحيد لمكالمة فائتة أن ياسين جرب الاتصال من رقم لا تعرفه بعدما حظرت رقمه لكن برقمها القديم؟

قررت التأكد من الرقم من خلال تطبيق «true caller» فعادت لغرفتها لتجلب هاتفها فوجدت اتصالا من والدها فأدركت ما ينتظرها، فخرجت من غرفتها وعادت للغرفة المجاورة وجلست على أحد الأسرة وردت: صباح الخير يا بابا.
وانطلقت رصاصته من فمه على هيئة كلمات توالت...
- «خير؟ هو اللي يجيب بنت زيك يعرف خير؟ حرام عليكِ يا شيخة، أسافر شغلي من هنا وأنتِ كل مصيبة ومصيبة أنيل من اللي قبلها، فسختِ خطوبتك، مش كفاية الحادثة والواد اللي بلتينا بيه، كمان تسيبي شغلك مع ياسين وتفسخي خطوبتك بيه، اسمعي يا بت أنتِ، أنتِ هتتعدلي ولا ويمين الله أنزل مصر أعدلك»
أنهى كلامه فسمعت والدتها تقول: اهدا يا كامل بالراحة يا أخي مش كده
- مش شايفة عمايلها ما هي دي آخرة دلعك فيها، تربيتك يا هانم
- يا سلام وأنت كنت فين؟ ما أنت ليل نهار في شغلك وسايبها ولا دلوقتي بقت بنتي لوحدي...
تركت الهاتف من يدها وتنهدت ولمحت محمد يقف عند باب غرفتها فسألت مستغربة: إيه اللي صحاك بدري كده؟
أتاها وجلس أمامها وقال: قلقت لما لاقتني في الأوضة لوحدي.
- معلش معايا مكالمة هاخلصها وأرجعلك نفطر سوا.
- «أنتِ يا بنت ..... أنتِ يا ست رقية»
- «قولتلك بالراحة، يا أخي حاول تحل مشكلة في حياتك بالراحة»
وضعت الهاتف على أذنيها وتركت محمد بالغرفة وخرجت منها متجهة لركن القهوة وردت: أنا معاك يا بابا لما تخلصوا خناقة هاتكلم.
- أنتِ خليتِ فيها كلام.
- في كلام وكلام كتير بس لو لقيت اللي يسمعني هاقوله، بس لا حضرتك ولا ماما هتسمعوني، كل واحد فيكم هيسيب المشكلة ويزعق مع التاني عشان مينفعش يكون هو اللي مسئول عن غلطاتي، بس عارف يا بابا أصلا مفيش حد منكم مسئول، أنا اللي مسئولة، وبالمناسبة أنا بقى عندي ٢٧ سنة وباشتغل وكبرت من زمان قوي.
أسفت على حالها وقاومت الدموع لكن بدا من نبرة صوتها أنها على وشك البكاء، شعرت بوالديها قد صمتا فسألت بجدية:
- أنتم لسه معايا ولا قفلتوا عشان مشغولين ومكالمتي معطلاكم؟
- روكا .....
سمعت صوت والدتها فقالت: كويس، هاكمل كلامي، أنا عارفة كل اللي هتقولوهولي، مفيش عريس هيجيلي بعد ياسين عشان أنا مش حلوة شكلا، عادية... عادية قوي، فمين هييجي؟ ياسين كان فرصة كويسة، وسيم وفي مستوانا وأخلاقه وعيلته، تمام؛ بس أنا عمري ما كنت مبسوطة، عمري ما حسيت إني أستاهل، وأنتم عمركم ما حسستوني إني أستاهل، وعشان كده استحملت علاقة أذنتي وتعبتني وبسببها نسيت أحلامي واشتغلت حاجة مش عايزاها، عملت كل اللي يرضيه هو ويرضيكم أنتم ومحدش فيكم قدر، والآخر فضلت غلطانة، فقررت طالما أنا هاعيش عمري كله جلابة مصايب، يبقى خلوني أعمل اللي يريحني وزعقولي وعاقبوني، على الأقل أبقى بتعاقب على اختياراتي أنا، غلط أو صح مش مهم، المهم سيبوني أختار.

- هو احنا دلوقتي اللي طلعنا غاصبينك على ياسين يا بنت....
- «كامل».
هتفت فيه والدتها لتثنيه عن سبته المعتادة ثم قالت: خلاص يا روكا، أنتِ كان ممكن تقولي أنا مش عايزة أكمل مع ياسين والموضوع كان خلص بالراحة.
- يا ماما أنا قولت كتير قوي ودايما كان ردك عليا اللي قولته
ضايقها أن تُوضع بخانة اللوم من ابنتها؛ إذ كانت تكره طريقة كامل المعتادة فقررت أن تنهى الحوار بأقل تأنيب من ابنتها فقالت: أكيد مكونتش أقصد اللي فهمتيه، ياسين فرصة كويسة طبعا بس أكيد أنتِ كمان تستاهلي يا روكا.
شعرت أن زمام الكلمات ستنفلت منها فقالت: خلاص الموضوع خلص.
- خلص ازاي يا زينات؟
- خلاص بقى يا كامل.
زفرت وقالت: أنا رايحة أفطر، نكمل كلامنا بعدين.
أنهت المكالمة وألقت هاتفها على سريرها ودفنت وجهها بين يديها فشعرت بيد محمد تمسح على شعرها وهو يسألها: أنتِ زعلانة؟
رفعت وجهها وتأملته وقالت: لا، أنا مهما كنت زعلانة أول ما باشوفك الزعل بيروح.
ابتسما فقالت: تعالى نفطر.
خرجا سويا من الغرفة فتذكرت التاب وقالت: لو عايز تلعب عليه زمانه شحن.
وتذكرت المكالمة الفائتة، لكنها قررت أنها لن تبحث عنها لتأكدها أنها من ياسين لكنها ستكتبها على هاتفها لتحظرها كرقمه، فتحت التاب وبحثت عن الرقم فلم تجد له أثرا فنادت محمد وسألته: أنت مسكت التاب النهاردة؟
- لا.
زاد استغرابها فظنت أنها تشوشت بينما هو سألها: هو شحن؟
- آه، خده لو عايز تلعب عليه.
اقترب منها ومد يده فمنحته إياه وهي تمسح على شعره، واتجها لغرفة الـliving، جهزت لهما أم زينة الفطور فشاهدا سويا سبييستون وهما يتناولانه.
وفي حدود الحادية عشرة وصلتها رسائل من ضياء على واتس آب ففتحتها وكانت
«جد محمد كلمني»
«عايز ييجي ياخد محمد»
«أنا في الوكالة مش عارف أكلمك»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس بالاستراحة واجما يرى أعين المحيطين به يتقافز منها الفضول، بينما الهم اتخذ من قلبه مستقرا.
- «بالسرعة دي؟»
لم يبُح بها لأحد واستغرب نفسه وضيقه، أدام النظر بالفراغ وشرد، إلا أن تحديق الهامزين به استوقفه، بدا له أن الجميع يريد معرفة ما الذي جمع الشامي بالمغربي؟
ومن ذلك الصغير بينهما؟

يراهن أنه عندما رن هاتفه ووقف بعيدا تلصصت آذانهم رغم يقينهم أنهم لن يسمعوه وعندما عاد بوجه يعلوه الحزن ملأهم الشك بألف ظن، لم يكن بينهم واحد حسن..
جاءته تالين وجلست قبالته وقالت هازئة: ازيك يا أونكل ضياء وازي طنط رقية؟
ضحكوا كلهم ضحكة صفراء كلون قلوبهم، فابتسم ساخرا كونه كان يشبههم ورمق تالين مشمئزا ثم اعتدل في جلسته ووضع في وجهها قدما فوق قدم وقال: كويسين.
ثم دس رأسه في هاتفه منتظرا رد رقية على رسالته التي حيرته في كتابتها وحيرته في قرار إرسالها لكنه بالنهاية كتبها..
رأى العلامات الزرقاء تتتابع فأدرك أنها قرأت، ثم كلمة typing...،ثم سمع صوت ياسين وهو ينادي: ضياء أنا عايزك.
أبصر لأول مرة كم كانت الوكالة بجمعتهم بيئة عمل تُمرض، همز ولمز ونتشفٍّ وأحيانا تنمر، احتملت رقية منهم كل هذا دون كلمة؟
أغلق ياسين الباب خلفهما بعدما جمعتهما غرفته وأشار له ليجلس على أحد مقاعد الطاولة المستطيلة التي كانت في مواجهتها حاسوب ياسين ثم قال: شغلك في الإعلان الأخير ده طلع وحش جدا، أنت إيه حكايتك؟ لا ده مستواك ولا ده شغلك.
تبادلا النظرات غيظا واستشعر ضياء استفزازه من ياسين الذي بدأ يلف حول المنضدة حتى وقف قبالته من جهتها الأخرى وأكمل: أكيد كان فيه أحسن من كدا ولا إيه؟
وقف ضياء وهتف منفعلا: بلاش الطريقة دي يا ياسين، لو في حاجة مضايقاك ممكن نتكلم فيها على طول، من غير لف ودوران.
- هو أنا لما أتكلم بكل صراحة إن مستوى الشغل طلع سيئ جدا أبقى بالف وأدور؟ بالعكس أنا باتكلم بكل وضوح.
- أنت مكونتش هتعلق على حاجة لولا كلام تالين معاك، طبعا قالتلك إن رقية .....
- رقية مش طرف في مناقشاتنا أنا باكلمك في مستوى شغلك، اللي لا بقى عاجبني ولا بقى يلزمني.
صدم ضياء وقال: أفندم؟ أنت عايز تقول إيه بالظبط؟
اتجه ياسين لمكتبه وجلس على كرسيه وقال: اللي فهمته، الوكالة زي ما هي محتاجة لمخرجة جديدة، محتاجة كمان مدير تصوير جديد.
ابتسم ضياء هازئا ولم يستغرب، بل اشمأز من نفسه كونه كان لا يزال يعمل بينهم، وعلت رقية في نظره لأنها استطاعت حسم قرارها قبله، رآها دوما شخصا جديرا بسبقه.
نظر له ياسين شزرا فعلق ضياء بلامبالاة: وماله.. واللي يشتغل في الوكالة دي يشتغل في غيرها.
علا رنين هاتف ضياء فأبقاه في جيبه فأدرك ياسين أن رقية المتصلة، ففتح درج مكتبه وأخرج منه مستحقات ضياء عن الإعلان الأخير وألقاها على المكتب متعمدا أن تكون طريقته مهينة، فضحك ضياء وعلق: إيه شغل الأفلام العربي ده؟ ده احنا اللي بنعملها.
ثم أردف: هو أنت بجد متخيل لما تحطلي فلوسي كده أنا مش هارضي آخدها؟
مد يده وأخذ ظرف النقود وأكمل: واهو اللي يجي منك يا ياسين مش حقي، تمام.
عاد رنين هاتفه لكنه ظل بجيبه، تبادلا نظراتهما بين غيظ ياسين واستهزاء ضياء ثم قال ضياء: سلام.
وفتح باب مكتبه وخرج للاستراحة، حمل حقيبته وجلب أشياءه ورحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزلت عليها الرسائل كصفعة لم تتوقعها ولم تخطر ببالها، كانت تعلم أن محمد سيعود حتما لأهله لكن غلبها العشم أن يكون ذلك اليوم بعيدا، اتصلت بضياء فأجابها بالمحاولة الثالثة فكان أول ما سألته: كل ده مش عارف ترد؟
- معلش والله كان لازم أخرج من الوكالة.
- أنت متأكد أنه جد محمد؟
حين سمع صوتها أحسه بعيدا، أو وكأنه عاد كسابق عهده مرتبكا ومتقطعا.
- قالك هياخده امتى؟
تتلاحق أسئلتها كما أنفاسها ورغم أنه لم يرها، لمحها من بحة صوتها فخشي عليها من الإجابة فباغتته: ضياء أنت ساكت ليه؟
- بكرة، بكرة في محطة رمسيس، قال هيجيلنا من إسكندرية وهنروح القسم تخلي مسؤليتك وهو هياخد الولد.
- أنت متأكد فعلا إنه جده؟
- هو قبل ما ياخد رقمي من أدمن صفحة الأطفال المفقودة بعت صورة البطاقة بتاعته وبعت صور له مع محمد.
أمسك هاتفه وهي لا تزال معه على الهاتف وجمع الصور التي أرسلها جد محمد بما فيهم صورة بطاقته وأرسلهم دفعة واحدة على «واتس آب» بينهما وتابع: بعتهوملك على الواتس آب يا رقية.
مرت عدة ثوانٍ دون كلمة، فقلق وسألها: رقية.. معايا؟
لم ترد فأردف: هأعدي عليكِ بكرة الساعة ١٠ تكوني جاهزة أنتِ ومحمد
- بدري كده؟
بدا صوتها مثقلا بالهم، فأجابها ضياء: متصعبيهاش علينا، أنا عارف إننا هنفتقده بس هو أكيد هيكون مبسوط لما يرجع لأهله.
لم تملك طاقة للرد فصمتت، فاقترح: طيب إيه رأيك ناخد محمد ونخرج النهاردة؟ اهو تبقى آخر ذكرى له معانا خروجة حلوة.
تحمست رغم حزنها وقالت: فكرة حلوة، مستنييينك.
وقبل أن تبحث عنه لتخبره طرق محمد باب غرفتها ثم دخل، كان يحمل بيده اسكتش الرسم مجددا ثم وضعه أمامها وقال: دي تيتة ماجدة وده جدو فؤاد وأنا واقف في النص وهما الاتنين ماسكين إيديا.
لم تكن بحاجة لشرحه، كانت الصورة واضحة، كتب بيده الأسماء فوق رؤوس أصحابها ومرة أخرى كلما تعرف اثنين رسمهما ووقف بينهما وتمسك بأيديهما، رق قلبها وهي تطالع رسمته، أحبت الوسط وتشابك الأيادي وكأن دونه لا تكتمل الصور، رأى ابتسامتها فشجعته فطلب: ممكن نعلق دي كمان؟
- آه طبعا ممكن.
منحته دبوسا فثبت الورقة في سبورتها بجوار رسمته مع ضياء ورقية وتأملهما سعيدا، وشعر بأن شيئا قد تغير عندما رأى أوراقا أخرى مثبتة لكنه لم يستفسر.
أدارت رقية جسده قبالتها وأمسكت يديه بكفيها وقالت: عندي ليك مفاجأة حلوة قوي.
اتسعت ابتسامته ففرحت لفرحته رغم غصة بقلبها، لو استطاعت تأجيل إخباره ما ترددت، سحبته من يده وأخرجت هاتفها وطالعته على الصورة وسألته: مين ده؟
بهتت ابتسامته وقال بصوت اختفى منه الفرح: جدو محمد.

غصة رافقتهما وكلاهما ينظر للصورة؛ هو منقبض وهي مغتمة، للحظة تمنت لو قال لا يعرفه، وبدا أنه فهم فأكدت: هو كلمنا، وهييجي ياخدك بكرة، وهترجع لمامتك وباباك.
مرت دقيقة دون رد فعل وكأنه يستوعب، بلا كلام أو بسمة أو ظل فرحة، عجزت عن تفسير ما شعر به، ارتبكت هي نفسها ثم استفسرت: أنت مش مبسوط ولا إيه؟
- مبسوط.
قالها واجما بوجه عابس ثم جلس بجوارها وسألها: أنتِ مبسوطة؟
بدا وكأنه اختبار.. أجابته ببسمة مرسومة غصبا فوق شفتيها فقالت: أكيد فرحانة عشانك.
خاف أن تعني إجابتها أنها لم تعد تريده فلم يحاول أن يزيد أسئلته وظل ساهما فقالت متداركة شروده: احنا مش هنضيع اليوم كده، أونكل ضياء هيعدي علينا وقال هنتفسح النهاردة، وهنروح أي مكان أنت نفسك فيه.
فرح وحزن؛ شعوران بددا بداخله وعيه بحاله فتصرف كآلي فقد شعوره وردات أفعاله، أخرج ثيابه من خزانتها ودخل الحمام بدلها وخرج ووقف أمام المرآة عابسا يصفف شعره ثم قال: هاستناكي تحت يا طنط رقية.
خرج من غرفتها فشعرت بعدوى الاضطراب تلفها، وقفت أمام خزانتها ودون حيرة سحبت (سويت شيرت) برتقاليا وبنطالا زيتونيا كانت اشترتهما «أون لاين» من عدة أيام وارتدتهما وأمام طلتها الملونة ابتهجت وتألمت، أول يوم تصاحب فيه الألوان هو الليلة الأخيرة لفراقها من كان سببا في تلوينها، تضايقت من نفسها وأحست مشاعرها أنانية فقررت أن تصطنع الفرحة ونزلت لمحمد.
ودون اتفاق مسبق كانت ملابس ثلاثتهم متشابهة وكأنهم سقطوا من بعضهم بعضا عندما احتواهم لونا البرتقال والزيتون وقد بدا لهم أن محمد قد ترك ابتسامته على رسمته المعلقة فوق سبورة رقية.
أول ما رأى ضياء ركض نحوه واحتضنه وقال: هتوحشني.
- وأنت كمان هتوحشني.
لاحظا لمعان عينيّ محمد بالدموع فتأثرا، لكن استغرابهما كان سببه غياب فرحة محمد، جلس بالأريكة الخلفية بينما ضياء ورقية جلسا بأماكنهما، وراقبه ضياء بالمرآة الأمامية فبدا وكأنه صدم بإيجاد أهله بدلا من الفرحة، زاد استغراب ضياء ورقية لكنهما لم يستفسرا حتى وصلوا لمدينة الملاهي فلما لمحها محمد نطق وهو يحاول تمثيل السعادة: وصلنا.
وكأن الفرحة تشقه وتثقل كاهله، فَطنا لضيقه ففكرا بسؤاله: أنت كويس يا محمد ولا في حاجة مضايقاك؟
سأله ضياء بعدما وضع ذراعه حول كتفيه وهو يسير بجواره فحدق به طويلا وكأنه يريد إخباره بشيء لكنه خاف وتراجع وقال بصوت مبحوح: لا، يلا بينا، هيييييييييييييه.
وركض أمامهما ثم التفت وقال لضياء: ممكن تصورني صور كتير؟
- حاضر.
- كتير قوي.
- حاضر من عنيا.
نظر ضياء لرقية وهمس: هو محمد طبيعي؟
- مش عارفة، يمكن خايف باباه ومامته يزعقوله.
- هو في أهل تزعق لابنها يوم ما يرجع؟ ده خايف يا رقية، وخايف كمان يتكلم.

نظر ضياء فوجد محمد قد ابتعد قليلا فركض نحوه فلما التفت محمد وجده فابتسم ثم أشار لأرجوحة ذات مقاعد ملونة ومعلقة بسلاسل وسأل: ممكن نركب دي؟
- يلا بينا
أمسكته رقية من يده وانطلقوا نحوها، رفعه ضياء على مقعد أزرق وأمسك محمد بيديه سلاسلها ثم أغلق ضياء حزام أمانها حول خصره وركبا بجواره ليبقى محمد بالوسط بينه وبين رقية ثم طاروا، حملهم الهواء بعيدا فضحكوا وشعروا بخفتهم، علا صوت ضحك رقية فضحك ضياء وضحك محمد فرفع ضياء كفه لمحمد فطرق على كفه؛ صوت أعاده لصوت لطمة...
- مين دلق الماية دي؟
- معاذ.
- متكذبش، أنت اللي دلقتها.
- لا والله معاذ
- أنت بتحلف كذب؟ ده أنا شايفاك وأنت بتدلقها.
- أنا مش باكدب أنتِ اللي بتكدبي عشان أنتِ كنتِ في المطبخ.
لم تكن اللطمة منها، سليم فعل، قالت أنه لم يتربَ وأقرت، سمية أفرطت في تدليله، ومثله بحاجة لتقويم.
شهق فجأة فالتفتت رقية قلقة: مالك يا محمد؟
- مفيش.
غابت الضحكة واحتلته التعاسة ونزلوا من الأرجوحة فسألته رقية: في حاجة قلقاك طيب؟ لو في حاجة احكيلنا.
هز رأسه نافيا وقال: أنا كويس بس... هو ممكن ناكل آيس كريم؟
بصوته رجاء يوحي بشيء لم تفهمه رقية فأبت أن ترفض له طلبا، جمعتهم طاولة بإحدى كافيتريا الملاهي فطلب محمد آيس كريم فانيليا وفروالة الذي يحبه وجلس يلتهمه وكأنها آخر مرة قد يأكل مثله حتى أنه لم ينتبه لتلطيخ ملابسه...
- كُل عدل يا محمد.
أمسك الملعقة وملأها مكرونة ورفعها لأعلى وقال: قوة فريرز الدفاعية.
وحركها ناحية فمه ثم سكبها على نفسه.
- يووووه مش قولتلك كُل عدل، أنت مش بتسمع الكلام ليه؟
- آسف.
- مامتك تعبانة دلوقتي مش حمل خدمتك وهي تعبانة، فاهم؟
- يا خبر يا محمد.
التفت مفزوعا فأدرك ملابسه فقال بسرعة: آسف والله العظيم مأخدتش بالي.
مسحت بقايا صوص الشوكولاتة عن وجهه وقالت: محصلش حاجة يا حبيبي.
تنهد وابتسم وملأ ملعقته وأطعم رقية وسألها: طعمه حلو؟
- قوي، شكرا على الآيس كريم.
- مفيش داعي للشكر.

عادا ليركبا بقية الألعاب، فركبا القطار السريع، السفينة الدوارة والنهر السريع والسيارات مرة مع رقية ومرة مع ضياء وتمنى محمد أن يركب الصاروخ لكن سنه لم يكن مناسبا.
التقط له ضياء صورة بعد صورة، مرات مع رقية ومرات معه ومرات بمفرده ثم رفع ضياء الهاتف عاليا ونظر ثلاثتهم لشاشته وتجلت ضحكاتهم «كانت أول وآخر صورة سيلفي جمعتهم وثلاثتهم نسى همه سهوا وضحكا»
عند موعد الغداء أشار بنفس التمني على «البرجر» وطلب واحدا حجمه كبير وانزوى في زاوية الطاولة التي جلسوا عليها والتهمه بنهم حتى انتهى فسأله ضياء: أجيبلك تاني؟
هز رأسه نافيا ثم قال: هو احنا ممكن نبقى نعدي على تيتة ماجدة وجدو فؤاد أسلم عليهم؟
- آه ممكن طبعا.
- هي لسه عندها كيكة من اللي أكلتها؟
أضحكهما سؤاله ورد ضياء: لسه عندنا كيكة.
مسح يديه وفمه ووقف وقال راجيا: ممكن نروحلهم من دلوقتي؟
- طيب مش عايز تركب حاجة تاني.
سألته رقية فقال: لا، أنا اتمرجحت كتير، أنا عايز أقعد معاكم، أصلكم هتوحشوني قوي.
كررها حتى زاد استغرابها، وألح حتى استسلما فرحلوا وظل بطريق العودة مهموما وكأنه عائد من مأتم.
وصلوا بيت ضياء، عندها بدا محمد أفضل لكنه كاد يلتصق بماجدة، طوال جلستهم جلس بجوارها وعندما قامت ذهب خلفها للمطبخ، وعاد معها بعدما ساعدها وحمل الأطباق التي ستوزع بها الموز والبرتقال فحظى بكلمة:
- «شاطر يا محمد»
فضحك وبدا ممتنا واستكملوا دور الشطرنج مع فؤاد حتى جاء موعد رحيلهم، احتضن فؤاد وبكى في حضن ماجدة وأعاد: أنتم هتوحشوني قوي.
- ابقى خلي مامتك تيجي وتجيبك تزورنا يا محمد.
- ماشي.
عادا لفيلا رقية وبدا أنه لا يريد ليومهما أن ينتهي فطلب منها ألا يناموا وأن يشاهدا سويا فيلما، فجمعتهما غرفة الـliving والبطانية الزيتوني وطبق فشار وطلب: ممكن نشوف inside out
- شكلك بتحب الفيلم ده قوي.
- أيوة.
تجاورا على الأريكة وحوطته بذراعها وتدثرا بالبطانية القطيفة، ثم تابعاه باهتمام وبعد مرور ربع الفيلم تقريبا سألها: هو اللي عنده كل ذكرياته حلوة يبقى محظوظ؟
ضحكت من جديته وهو يسأل، وأجابته: أكيد محظوظ.
- تعرفي أنا محظوظ عشان عندي ذكريات كتير حلوة مع ماما وبقى عندي ذكريات حلوة كتير معاكم بس مش عارف هيكفوا ولا لا.
- هيكفوا إيه بالظبط؟
لم يجبها واكتفى بوضع قبلة على خدها وعاد يتابع الفيلم شاردا حتى غلبهما النوم بمكانهما ولم تدرك رقية إلا صباحا، فأيقظته وقالت: يلا يا محمد عشان نفطر سوا.

- متنزلش من غير فطارك يا سليم.
- مش هاكل يا سمية ولو سمحتِ تسيبيني.
فتح عينيه ببطء، رآهما يتشاجران بسببه، عرف عندما ذكر اسمه.
- حرام عليك يا سليم ده مالوش غيرنا.
- ده بيكدب وبيشتم وقليل الأدب وعنيد، تقدري تقوليلي ده لو كبر شوية وعمل مصيبة هنعمل معاه إيه؟
- دلوقتي بعد ما ربنا أكرمني وحملت.. محمد بقى فيه كل العبر؟ مش ده محمد اللي كنت بتخاف عليه من النسمة؟
- أنتِ قولتيها، ربنا كرمنا وحملتِ، عايزين محمد في إيه؟ وبعدين ما لو بيسمع الكلام وعدل كنت خليته لكن أنتِ شايفة تصرفاته كويس.
- أنا مش موافقة إن محمد يرجع.
ركض لغرفته واختبأ تحت غطائه وبكى، حتى سمع صرخة ففز من سريره وجرى ناحية الصوت، فرأى والدته انزلقت بالحمام وأمام قدميها دم وعند مدخل الحمام عربته اللعبة ووالده يزعق فيه: أنت حاططها هنا عشان تكعبلنا بيها؟
ودفعه بعيدا فلم يطمئن عليها فاستدارت بوجهها لتراه وكانت آخر مرة كلاهما رأى الآخر فيها وبينما دموعه كانت تملأ عينيه.
- «محمد»
نادته رقية فانتبه فأشارت لكرته وقالت: هاتها أحطهالك هنا مع حاجاتك.
نظر للحقيبة التي تجمعها وسألها: أنتم كل الحاجات اللي جيبتوهالي هتدوهالي؟
- أيوة طبعا.
ظل يراقب رقية وهي تجمع أشياءه ولم يقل شيئا، ثم وقف فوق السرير ليكون قبالتها تماما وارتمى بحضنها وظل متعلقا بها ثم قال: شكرا يا طنط رقية.
لفت ذراعيها حول خصره وتبتت به وقالت: أنا اللي شكرا قوي يا محمد، عمري ما هانساك، أنت أحلى حاجة عدت عليا بحياتي.
- وأنتِ كمان أنتِ وأونكل ضياء، أنا حبتكم جدا.
مسحت دموعه ودموعها وهندمت ملابسه وقالت: أونكل ضياء وصل تحت اسبقني وأنا هاحصلك.
ظلت عيناها متعلقة بطيفه حتى غادر الغرفة فانقبض قلبها، نحت أشياء محمد التي جمعتها ووقفت أمام خزانتها وأمسكت الأبيض والأسود وجمعت شعرها بمشبكها العاجي الأسود ولم تبك. عادت ريما كعادتها ما إن امتصت الحياة ألوانها وأزالتها وحملت أشياء محمد ونزلت، رآها ضياء فاستاء وكأنهما يعودان للحظة ما قبل الحادث بلحظات. حمل عنها الحقائب وسبقها ليضعها بسيارته وشبكت هي يدها بيد محمد حتى ركب بالمقعد الخلفي.
حملهم الصمت كأنه وعد قُطع بألا يجمعهم الكلام عندما يجتاحهم الحزن، قاد ضياء السيارة وظل من آن لآخر يرمق أصغر أصدقائه ويحاول تصنع ابتسامة، بينما الصغير شارد في ذكرياته النقيضة لما ظناه عن حياته...
- طالما سمية هتفضل عند مامتها سافر أنت شغلك ومتشلش هم محمد، أنا بالتوكيل اللي معايا هاعمل كل الإجراءات.

سمع جده يقولها ثم تابعت جدته: والله يا ابني كانت غلطة من الأول؛ احنا لا عارفين أصل ولا فصل العيال دي إيه.
- لا واللي ربنا بلانا بيه ده يتفات له بلاد.
- حتة ولد، أعوذ بالله.
وقف سليم ونظر لوالديه وقال: أنا عايز أخلص من موضوع محمد ده وأرجع أجهز البيت قبل ولادة سمية.
- متقلقش سيب محمد عليا وسافر أنت.
«محمد»
- تعالى عايزك.
ناداه جده وقال لجدته: لبسيه وحضري حاجته.
ثم نظر له وقال: أنت عارف احنا رايحين فين؟
بكى وانتحب وأجهش بالبكاء بصوت عالٍ ورجا بدل الرجاء ألف رجاء: أنا آسف، أنا مش هاعمل أي حاجة غلط تاني، بس بلاش تسيبوني.
- بعد إيه، ما أنت لو كنت مؤدب وبتسمع الكلام كنا خليناك معانا.
- طيب آخر مرة والله، آخر مرة مش هاعمل كده تاني والله بس متسبونيش عشان خاطر ربنا يا جدو عشان خاطر ربنا.
- بس يا ولاه، البس مع تيتة واوعى أسمع صوتك واحنا في القطر وإلا والله هاسيبك فيه.
لاحظا ارتجافه ثم بكى حتى إن ضياء أوقف السيارة ونزلت رقية وركبت بجاوره وسألته مفزوعة: مالك يا محمد في إيه؟
- مش عايز أروح الدار مش عايز أروح الدار.
- دار إيه؟ في إيه؟
زاد ارتجافه وبكاؤه وهو يكرر: هاسمع الكلام مش.. مش هاعمل دوشة، مش عايز أروح الدار... قوليله إن أنا كنت كويس معاكم، خلي تيتة ماجدة تكلمه وتقوله إن أنا كنت كويس.
بكت رقية لبكائه وضمته لصدرها وقالت: اهدا يا محمد وفهمنا في إيه؟
صف ضياء السيارة ونزل منها وجلس بجواره من الجهة الأخرى وسأله: طيب احكيلنا في إيه؟
بيد حمل حقيبة وبالأخرى سحبه.. يتذكر القطار عندما ركباه سويا وعينا جده المسلطة عليه، لم يبك؛ طوال الليل بكى كثيرا حتى الصباح عل بكاؤه يغير من واقعه، وبالنهاية أدرك أن بكاءه لن يفيده فصمت وسهم وكتم حزنه واستسلم لمصير قالوا كلهم أن هذا ما يستحقه.
وصلا رمسيس وخُر من يده التي لم يفلتها جده إلا عندما أوقف سيارة أجرة اختفى مع سائقها يضع الحقيبة التي يحملها في حقيبة سيارته..
ولحظتها اختفى محمد، ركض حتى دون أن ينظر حوله.. ركض بعيدا قدر استطاعته.. ركض وظل يركض حتى شعر بقوة تصدمه، تركله لأعلى وتجرفه ألما وكانت تلك سيارة رقية.
أنهى كلماته ولم ينتهِ بكاؤه ليعرفا معا أن أول سؤال تبادر لذهنهما وهو أيعرف محمد كل هذا؟
كانت إجابته؛ نعم يعرف وزيادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٧)

عادوا أدراجهم قبل أن يصلوا ولأن بيت ضياء كان الأقرب اتجهوا إليه، كان محمد لا يزال ينتفض بين يدي ضياء حتى وضعه بسريره فجاورته رقية ودثره فؤاد واحتضنته ماجدة وظلت تقرأ المعوذتين في أذنه وكل ما تيسر لها من قرآن تذكرته. تواصل رنين هاتف ضياء فنظر لرقم جد محمد والغضب يحرقه لكنه تمالك أعصابه وفكر وأجابه باقتضاب يطلب منه تأجيل موعدهما لأنه سيضطر للتأخير، ثم توجه للمطبخ وأعد كوب عصير ليمون وعاد به لمحمد، أفسحت له ماجدة مكانها فجلس به ثم سحب محمد وأجلسه في حجره ولف ذراعه حول كتفيه وسقاه رشفة برشفة ثم سأله:

- ليه مقولتلناش يا محمد؟

لم يستطع الرد فأردفت رقية: أنت كنت خايف مننا؟

هز رأسه نافيا وأجابهما: أنا كنت خايف جدو يلاقيني

زاد بكاؤه فضمه ضياء لصدره أكثر عل ارتعاشة جسده تهدأ وحثه أن يكمل فقال: أنا اتحايلت عليهم كتير يسيبوني مع ماما بس هم مش عايزين.

بقلب مُزق من صدمته بعائلة «محمد» سألته رقية وهي لا تزال متأثرة لبكائه: ليه؟

- عشان هما قالوا إن ماما خلاص هتجيب baby ابنهم بجد مش زيي.

- يعني إيه مش زيك؟ أنت مين اللي قالك الكلام ده؟

ربت ضياء على ظهره وحثه أن يهدأ ويجيب على رقية فحاول ثم قال: معاذ ابن عمي قالي إن أنت مش ابن أونكل محمد، بابايا يعني، وقالي إنهم جابوني من الملجأ، أنا قولتله أنت كداب واتخانقنا بس لما رجعت لماما وسألتها قالتلي أنه مش بيكدب.

- بعد كده إيه اللي حصل؟

- مفيش أنا عرفت وخلاص، وكان نفسي يسكتوا بس معاذ كان دايما بيضايقني وتيتة زوزو كانت بتقولي لو مسمعتش الكلام هنرجعك الملجأ تاني.

اشتد بكاؤه وعلا صوته فحملته رقية من حجر ضياء واحتضنته وضمته لصدرها وظلت تمسح على رأسه، لكن ارتعاشة جسده زادت وهو يترجاهم: أنا مش عايز أرجع الملجأ، خلوني معاكم وأنا مش هاعمل حاجة والله هابقى كويس، وعد والله وعد.

بكت وضمته بينما ماجدة حوقلت وعلقت: ده إيه الغلب ده يا ابني

محت رقية دموعه ومسحت وجهه بكفيها وخشيت أن تعد هي بما قد لا تستطيع إيفاءه فصمتت فمسح ضياء على رأس محمد وسأله: أنت مش عايز ترجع لمامتك يا محمد؟

- عايز والله بس هم اللي مش عايزين.

- احنا ممكن نقابلها ونكلمها.

قالت رقية ثم تابع فؤاد: وهنقابل جدك ونتكلم معاه.

انتابه الخوف من ذكر سيرة جده ثم سألهم: طيب ولو مرضوش، لو ماما قالت لا هتعملوا إيه؟

نظرا لبعضهما البعض ولم يجدا عندهم إجابة فتطلعا في وجه محمد لحظتها وأمام حمرة عينيه قال ضياء بثقة: أوعدك يا محمد مهما حصل مش هتروح الملجأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن يظن أن الجرح لا زال حيا إلا عندما مسته دموع محمد، شعر بها تنهمر بقلبه وتكويه وتذكره بما تعنيه لحظة تخلي من اعتبرتهما كل حياتك عنك. عاوده شعور القهر، وأول نظرة لبيت عمته وهو يقف أمامه كمقيم لا زائر، وصوت والده وهو يغادر ووصيته الأخيرة بأن يكون على قدر المسئولية وألا يثير المشاكل، لم يفهم وهو بعمر السابعة ما كان ينبغي عليه فعله، فظل يبكي ولولا حضن ماجدة وفؤاد ما استطاع أن يتوقف. شعر بيد تربت على كتفه فانتبه لفؤاد الذي ابتسم في وجهه وكأن عينيه قالت أنها مهما ثقلت ستمر، فأومأ رأسه يوافقه ما لم يقوله ثم أسند ضياء رأسه على ذراعيه الموضوعتين على النافذة وشرد بالطريق عل هواء فبراير البارد يثلج صدره.
بمحطة رمسيس على إحدى الطاولات بمطعم بالطابق الثاني كان جد محمد ينتظرهما منذ ساعتين بعد وصوله من الإسكندرية، تولى فؤاد الحديث وحاول أن يجد فرصة لإقناع الجد برغبة محمد في البقاء مع والدته لكنه ما إن أنهى كلامه حتى بدا وكأنه سكب بنزينا فوق نار أضرمت في صدر الرجل ولولا الناس ما كان ليتمالك غضبته إذ نزل كلامهما عليه كصاقعة فوقف وزعق: إيه التخريف ده؟ مبقاش فاضل غير العيال تهرتل ونصدقها.
ورغم حرص فؤاد ألا يقول لجد محمد شيئا مما قاله عن إساءة معاملتهم له مكتفيا بإقناعه بأن محمد بحاجة لمساعدتهم ليمر بأزمته إلا أنه غضب لكون محمد قد «فضحهم» على حد وصفه ثم نعته بـ«ابن الأبالسة» ليؤكد أنهم كانوا نعم الأسرة الكافلة لذلك الوغد، ولما شعر بنظرات الناس تحاصره جلس ورشف من كوب شايه رشفة فطلب منه فؤاد بنبرة رصينة: يا ريت نتكلم بهدوء يا أستاذ محمد.
زفر جد محمد ثم حدق بهما متضايقا ثم قال: ولد كداب ابن شياطين، ضحك عليكم بعياطه، ممثل قدير.
أخرج من جيب بنطاله علبة سجائره ووضع سيجارة بفمه وأشعلها وتابع: عارف يا أستاذ فؤاد، محمد ده يوديك البحر ويرجعك عطشان، يعني أنتم تخيلتوا أنه مش عارف حاجة عننا طيب إيه رأيك، محمد حافظ تليفوني وتليفون باباه وتليفون مامته واسمي واسم باباه ومع ذلك كذب عليكم.
غطت سحابة دخان وجه الرجل فتطلع إليه ضياء من خلفها، وقد أشفق على محمد وشعر بالندم لأنه كان السبب في إيجاد جده، ذلك الذي كلما سعى بكلماته ليدين الصغير تجلت إدانته، وأمام كلمات الرجل سأل مستنكرا: محمد كان خايف يتوه منكم؟
- كان دايما يقول كده، أنا باحفظ كل حاجة عشان لو توهت منكم تعرفوا تلاقوني.
بئس الخوف، حين يحتل قلبا، وما أصعبه لو قلب طفل، فاقد الثقة في أقرب الناس إليه، فكر ضياء أن يسأله، وهل بحثتم عنه حين تاه؛ لكنه قرر ألا يجرف حوارهم - لدفاع وهجوم - وآثر الصمت تاركا لفؤاد مهمة مناقشة الجد والذي بدا أنه كان يريد إفراغ ما عنده لفؤاد حتى لا يلام.
- والله ابني ما خلى في نفسه حاجة ومفيش حاجة طمرت فيه، ويا ريت على قلة الأدب والشقاوة ما احنا في بيوتنا عيال، إنما مؤذي؛ تخيل حاول يسقط أمه؟ مفيش حد من أحفادي سلم من إيده، حتى جدته كان بيقل أدبه عليها، أنتم بس عشان غرب عمل عليكم الشويتين بتوعه ومثل عليكم إنه مؤدب وكويس.
رفع ما بقي في كوب شايه وشربه دفعة واحدة وقال: ومع ذلك سليم قال مصاريفه وكفالته هتمشي زي ما كانت، دي حاجة كانت لله وهتفضل ماشية.
- بس مش ده اللي محمد عايزه.

- والله ده اللي نقدر عليه يا أستاذ فؤاد، حط نفسك مكاننا، لو عمل حاجة في الولد اللي ابني بيترجاه من الدنيا هنعمل إيه ساعتها؟ باقولك حاول يسقط والدته وهي حامل.
لم يجد فؤاد ما يقوله أمام إصرار الجد الذي لم يكتف بما قاله وتابع: والله وقَسم اتحاسب عليه الواد ده ابن شياطين وأبالسة.
- خلاص عرفنا إنه وحش.
هتف فيه ضياء فشزره جد محمد ثم قال: بص يا ابني أنتم شكلكم ناس طيبين، بس أنا باقولهالك اهو مش كل العيال ينفع تتسمى عيال، محمد ده لو قعد معاكم شوية كمان وشوفتوا الوش التاني هترموه في الشارع مش هترجعوه الدار.
- كفاية بقى.
- اصبر يا ضياء، احنا مش جايين نتخانق مع أستاذ محمد.
حاول فؤاد التهدئة ثم وجه كلامه للجد وقال: طيب أنا متفهم كلامك لكن شايف فيه حل، الولد محتاج تعديل سلوك، ليه متاخدوش خطوة في النقطة دي مع الاحتفاظ به؟ من كلامك واضح إن الولد فاقد للأمان وجايز الإحساس ده لازمه من وقت ما عرف الحقيقة وجه موضوع حمل والدته كمل عليه.
دعس الرجل بقايا سيجارته ولم يعلق، شزر فؤاد وحثه يكمل: حاجة تانية مهمة يا أستاذ محمد.. الرضاعة مش لعبة، لما مرات ابن حضرتك تاخد طفل شهور وترضعه في أحكام بتترتب على كل ده، في صلة حتى لو مش بالنسب، أبسطها إن الطفل اللي جاي ده أخو محمد.
- الاتنين عمرهم ما هيبقوا واحد.
هب ضياء هاتفا فيه: ولما دي طريقة تفكيركم أخدتوه من الدار ليه؟ ولا لما كنتم محتاجين له أخدتوه ولما ربنا أكرمكم خلاص مهمة محمد خلصت.
وأمام انفعال ضياء هتف: اسمعوا بقى أنا احتراما لمجية والدك، قعدت أسمع بما فيه الكفاية، كلام أنا واثق أنه مش هيغير في قرارنا كعيلة شيء، لكن الموضوع بالنسبة لنا منتهي وأتمنى ده يكون واضح لحضراتكم.
- وده نفس رأي والدته؟
- والدته لا طايقاه ولا عايزة تشوف وشه.
خبط الطاولة بيده ثم قال: ممكن نقفل الموضوع ده بقى، بصوا يا جماعة أنا راجع في قطر خمسة، وكل اللي عايزه أسلم محمد الشئون قبل ما أسافر وعلى رأسي تعبكم معاه ومستعد أدفع تمن أي حاجة جيبتوها له، وأي فلوس اتصرفت بس يا ريت نلحق نجيبه عشان أخلص أوراقه وأسلمه.
- محمد مش هيرجع الدار.
هتف ضياء فزفر وقال: أنتم عايزين إيه بالظبط؟ عايزين تاخدوه أنتم خدوه، بس خلصونا من الهم ده.
كظم فؤاد غيظه ولكز قدم ضياء أسفل الطاولة ليحثه على الصبر ثم سأل الجد: طيب ممكن نتكلم مع والدة محمد؟
- أنتم زودتوها قوي.
ثم وقف وقال: عنكم ما جيبتوه، أنا رايح الشئون وهناك هم يتصرفوا، يفضل في الدار ولا ربنا يبلي بيه عيلة تانية غيرنا المهم ننهي الموضوع ده.
- ثانية واحدة هو ممكن عيلة تانية تاخده؟
- ممكن.. وممكن كمان تاخده من غير ما يرجع الدار لو ورقهم خالص.

نظر ضياء لفؤاد مترددا، شعر بأن القرار أسرع من حساباته، خاف من خذلان محمد وخاف من رفض محمد لبديل حتى لو كانوا هم، اضطراب فرض نفسه واضطرار حسم أفكاره فقال: احنا هنكفل محمد.
- وماله، بس كده حضرتك لازم تجهز ورق الكفالة.
- موافق بس لحد الورق ما يخلص الولد هيفضل معانا.
- وماله خليه معاكم.
انتاب فؤاد القلق من سرعة القرار لكنه لم يعلق واكتفى بسؤاله: ابن حضرتك مش هيكون عليه أي مسئولية؟
- والله لو حد من الشئون فكر يدور ع الولد، هه، اهو لسه تايه ومتهيألي من مصلحتنا كلنا إنه يفضل تايه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمن نكون؟
لمن ربونا وعلمونا كيف نتمسك بأيادي من نحبهم؟
أم لمن أنجبونا وأذاقونا التخلي؟
فكر ضياء ثم تساءل؛ تُرى كيف شعر فؤاد يوم قرر أن يضمه لبيته وصدره؟
أراوده خوف؟ أم اجتاحته سعادة؟ عادا للسيارة ورافق ضياء الشرود لكن هذه المرة استدركه فؤاد عندما لمح الأسئلة التي دارت بعقله منذ سنوات تحوم حول عقل ابنه ولأنه يعرفه أجابه قبل أن يسأله:
- كنت خايف بس طمنت نفسي.
التفت ضياء ناحيته وتأمله، بينما هو أكمل: قولت لنفسي ضياء ده نعمة وجاتلي مينفعش أفرط فيها، ولو في يوم رجع لمامته وباباه ده حقه ولو اختارهم هاحترم اختياره، بس قبلها هتبت فيه بايدي عشان يعرف إني ضهره وسنده، وعشان لو مشي يفضل عارف إن فيه باب هيفضل مفتوحله.. فيه أب وأم مستنين وجوده معاهم.
لمعت الدموع بعيني ضياء وسأله: تفتكر أنا هاقدر أكون زيك؟
- تقدر.. لو استوعبت الموقف كويس، لو محملتش محمد فاتورة تحقيق أحلامك، أو اعتبرت وقوفك جنبه دين في رقبته ولازم يرده.
سكن خوف ضياء وانزوت بسمة على شفتيه بينما أكمل فؤاد: وأهم حاجة تستوعبها، إنك مش صاحب الفضل في الحكاية، أنت ربنا اختارك، وجعل الإنسان ده اختبارك، وشطارتك تعدي الاختبار وتكون قد الاختيار ده.
تنهد وشرد وعادت كلمات الجد تجول بعقله ثم سأل فؤاد: هو لو كلام جد محمد عن محمد خوفني ابقى مش قد الاختيار ده؟
- كويس إنك فتحت الموضوع ده قبل ما نرجع، أنا عايز أقولك حاجة؛ اوعى تجيب سيرة لمحمد عن الكلام اللي قاله جده.
- أنا عارف إنه بيكدب.
- لا مش شرط يكون بيكدب، هو ضخم غلطات محمد بس أنا مش مستبعد شقاوته وكدبه وضربه لولاد أعمامه، هما اللي مش مستوعبين إن دي كانت ردود أفعال طبيعية لإنه حاسس بينهم بالغربة.
- والخوف، خايف لو تاه منهم ميدوروش عليه.

زفر فؤاد ثم فكر: متهيألي هنحتاج نشوف دكتور نفسي، وهنحتاج منقولش لمحمد حاجة دلوقتي عن كفالتنا له، لحد ما نتأكد من الخطوة.
غابت ابتسامة ضياء وطفق على وجهه القلق، أدرك أن للمسئولية صورة أخرى لن تكافئ وردية توقعاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنتظر صعودهما ما إن لمحت وصول السيارة.. ركضت من الشرفة وقابلتهم بفناء البيت تسأل قلقة رغم أن فؤاد قد اتصل بماجدة ليطمئن على محمد، إلا أن ما قاله باقتضاب عن مقابلة الجد لم يكف رقية فسألت ضياء حين وقف قبالتها: طيب ومامت محمد مقالش أي حاجة عنها؟
- كل اللي قاله إنها مش طايقاه وهي قبلهم مش عايزاه يرجع.
كانت أقسى صدمة، ظلت بمكانها حتى أنها لم تنتبه لاستئذان فؤاد وصعوده لشقته بينما سألها ضياء عن محمد فقالت: طنط ماجدة أكلته ولما عرف إن جده مش هياخده وإنه هيفضل معانا هدا ونام.
- طيب كويس.
فكر لثوانٍ ثم قال: تعالي معايا طيب، هنروح نجيب حاجات لمحمد.
أخبر فؤاد وانصرفا، سارا متجاورين ولم تستطع رقية أن تصمت رغم ثقل الكلمات وقالت: محمد صعبان عليا قوي، احنا كنا متخيلين إنه مش عارف، طلع عارف لدرجة توجع وتقهر. ضمت يديها أمام صدرها وتابعت: أنا مصدومة قوي لدرجة إني مش عارفة أفكر، طول الأيام اللي فاتت كنت دايما بتخيل عيلة محمد غير أي عيلة ممكن أكون قابلتها، بالذات مامته، طلعت بأحلامي سابع سما وجه جد محمد ونزلنا كلنا سابع أرض.
تنهدت ثم تابعت: هنعمل إيه دلوقتي؟ هينفع محمد يفضل معانا؟
لم تفقد النون مذاقها رغم مرارة الموقف، ابتسم وهو يتأملها وتوقف للحظة عن السير فوقفت ونظرت لوجهه عندها قال: أنا هاكفل محمد. بنبرة متخبطة ملأها التردد ليس لأنه لا يريده بل لأن مخاوفه أكبر من اتخاذه للخطوة، عادا للسير ورأى هو الخوف مرسوما على ملامحها دون أن تُعلق بكلمة فسألها: ساكتة ليه؟
احتارت فيما تقوله ثم قالت وهي تبصر أمامها: مش عارفة، يمكن دماغي دار فيها سيناريوهات كتير لليوم اللي محمد هيسيبنا فيه ويمشي لكن متخيلتش إنه ممكن يفضل معانا.
أشار للهايبر ماركت الذي نوى دخوله فسارا باتجاهه وعلق على كلامها قائلا: ولا أنا، بس لما بقيت بين إني أختار إن محمد يرجع الدار أو يفضل معانا مقدرتش أخلي جده ياخده.
- مش قادرة أستوعب إنهم بعد كل السنين دي هان عليهم، وازاي قدروا يتخلوا عنه؟
- متسأليش هتتعبي، مفيش كلام ممكن يوصف الكسر والمرارة اللي ممكن واحد يحس بيهم وهو شايف باباه ومامته مش عايزينه.
شعر بدموعه تعلق بجفونه فخشي انهمارها أمام رقية فمحاها وقال: أنا مش عايز محمد يحس الإحساس ده.
استبقها وصعد درجات السلم بمدخل الهايبر بينما ظلت هي بمكانها تطالعه حتى شعر بها لم تجاوره فالتفت ليراها وسألها: مش جاية معايا ولا إيه؟
- لا أنا معاك.

دخلا سويا فقال لها: أول يوم روحت فيه بيت عمتي، أخدني فيه بابا فؤاد وجابلي عجلة، عشان كان عارف إن نفسي فيها.
وقفا أمام قسم لعب الأطفال وأكمل: بافكر أجيب لمحمد عجلة، إيه رأيك؟
كانت مأخوذة بتصرفاته لدرجة أربكاتها فتفادت النظر ناحيته وقالت وهي تحدق بالألعاب أمامها: فكرة حلوة قوي.
ثم أشارت لدراجة خضراء وقالت: دي حلوة قوي.
ابتسم وسحب الدراجة من مكانها وهو يقول: شبه اللي جابهالي بابا، هناخدها.
انسحبت من محيطه وابتعدت لتشاهد الألعاب فسألها وهو لا يزال بمكانه: لاقيتي حاجة تانية؟
كانت ساهمة أمام الدمى لدرجة ظن معها وهو يجاورها أنها تعجبها فسألها وهو يشير للتي كانت أمامها مباشرة: عجباكِ؟
انتبهت لسؤاله فبصرت ما كانت شاردة أمامه، دمية لفتاة بشعر أسود ترتدي بلوزة سوداء وتنورة بيضاء، فقال وهو يرمقها: لما تعمل عروسة وتفكر تسميها رقية.
ابتسمت وتركته وتحركت ببقية القسم فلما وجدها قد أولته ظهرها وضع الدمية بعلبتها وأخذها ووضعها فوق مقعد العجلة ونظر ناحية رقية وطلب منها أن تبحث عن اللعبة التي يحبها محمد -بلابل- ولما وجدتها أخذا اثنين ثم سألها: فاكرة الشوكولاتة اللي أكلناها يوم ما محمد خرج معانا من المستشفى؟
- أيوة فاكراها.
- طيب ممكن تجيبيلنا منها خمسة، أصلي مش فاكرها خالص.
- أوكى بسيطة.
- وأنا هاسبقك عند الكاشير عشان منتأخرش على محمد.
- ماشي.
كانت فرصة جيدة لكليهما؛ هي هدأ ارتباكها وهو مرر الدمية دون أن تلاحظ، وبعدما خرجوا بأكياس مشترياتهما سألها قبل مغادرتهما للهايبر ماركت عن محل لتغليف الهدايا؛ إذ فكر أن يمنحهما ما جلبه لهما بأكثر طريقة مميزة. سارا سويا لمحل كان في مدخل الهايبر، سبق رقية وطلب من الفتاة الموجودة بالمحل وضع كل لعبة بكيس هدايا منفصل ثم نادى رقية وطلب منها مساعدته في شراء بالونات هيليوم فاختارت هي واحدة باللون الذهبي على شكل حرف الـM ربطها ضياء بالعجلة وحمل أكياس الهدايا وخرجا.
بدت سعيدة وهي تتأمل الدراجة والبالونة وأكياس الهدايا ثم قالت وكأنها تخمن: تفتكر عيد ميلاد محمد امتى؟
تنهد لكونه أصعب سؤال ممكن أن يُسأل عنه محمد وشعر رغم ثقل شعور التخلي الذي تحمله أن مثله ومحمد لا يستويان، لكنه ابتسم وقال: خلينا نسأله ونحضر لليوم ده، محمد يستاهل كل حاجة حلوة.
كلاهما ابتسم، واستكملا سيرهما بعدما مرت ثوانٍ تنحنح ثم وقف ومد يده بالكيس الزهري وقال وهو يضعه أمامها: امـــم... يعني هو أنا حسيت إنها شبهك.
بدت متفاجأة؛ لا من جلبه للدمية، بل من كونها لم تلاحظ أنه اشتراها بالأساس، دق قلبها سريعا وزاد ارتباكها لدرجة أنها ظلت تحدق بكيس الهدايا غير مصدقة أنه اشتراها، نظر لوجهها وابتسم وأكمل: أنا حسيتها عجبتك.

انتظر أن يرى أي ردة فعل منها بجوار صدمتها فلما لم يجد مازحها: طيب يا ستى خليها للذكرى، عشان لما الأيام الحلوة دي تعدي تبقى تفتكرينا.
ودونما قصد منه مست كلمته جُرح وحدتها فترقرقت دموعها، أخذت منه الكيس وأخرجت منه الدمية وظلت تتأملها بابتسامة ممزوجة بلمعة عينيها ثم قالت: شكرا يا ضياء.
استغرب فسألها: أنا قولت حاجة غلط؟
- أبدا، دي فعلا بالنسبالي أيام حلوة مش تريقة، وأنا متمناش أبدا إنها تعدي، عارف.. أنا عمري ما صادفت المحبة في عينين حد غير لما عرفتكم.
- أنتِ تستاهلي كل حاجة حلوة يا رقية، احنا بس اللي كنا أغبيا ومش مقدرين قيمتك وأولنا ياسين.
- كانت فترة وعدت، مش عايزة أفتكر الوكالة ولا أي حاجة تخصها.
غلبه فضوله فاستفسر: أنتِ صحيح أنتِ وياسين سيبتوا بعض؟
- أيوة، أنت عرفت؟
- يعني.. هو قال لتالين، وتالين قالت لوالي، ووالي قال لهادي، وهادي جه قال لي.
وكلاهما ضحك ثم علقت: بجد مش ممكن، أنا كل ما افتكرهم أحمد ربنا إني مشيت.
- كان أحسن قرار أخدتيه يا ريتني عملت زيك، لكن أهو تم في الآخر.
- مش فاهمة، أنت سيبت الوكالة؟ طب ليه؟
- هو قرار ياسين، وتقدري تقوليإنه أصح قرار أخده، أنتِ كنتِ صح يا رقية، أنتِ الوحيدة اللي صح.
تبادلا النظرات للحظة فنكست وجهها متفادية النظر لعينيه ثم قالت: ممكن يلا بينا عشان منتأخرش على محمد.
أكملا سيرهما حتى عادا فلمحا محمد بالشرفة، عندما استيقظ ولم يجدهما وقف ينتظرهما، دخلا من البوابة الحديدية ودفع ضياء الدراجة ولوح هو ورقية بيده فلوح لهما محمد وهو يضحك فناداه ضياء: انزل عشان تركبها.
ركض مسرعا حتى أنه لم يضبط حذاءه بقدمه وأول ما وصل أمامهما سألهما: دي بتاعتي؟
- عجبتك؟
سألته رقية.. فهز رأسا فرحا، فسأله ضياء: بتعرف تسوقها ولا أعلمك؟
- باعرف ده أنا محترف.
- طيب يلا ورينا.
جاور فؤاد ماجدة وكلاهما ابتسم وكأن ذكرى الزمان تعاد أو أنها ليلة حصادهما، تابعا محمد بعدما ركب دراجته وقد عادت لوجهه ضحكته، ضحكة لا زالت تشوبها بقايا دموعه لكنه استشعر أن ضياء ورقية يصران على محوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«محمد .... يا محمد ..... يا محمد»
سمع صوت رقية تناديه فتشوش.. لم يفرق أهو صوتها بواقعه؟ أم كابوسه الذي رأى فيه جده يجره ويقذف به في مكان معتم ويحبسه فظل يطرق أبوابه وحوائطه ويصرخ: خلاص والله مش هاعمل حاجة تاني، يا ماما يا مااااما، ياااااا مااااااااما.
«ياااااا محمد»

فزع فقام يصرخ كانت رقية قد استيقظت على صوته، رأت وجهه غارقا بعرقه وجسده كله ينتفض وقد أغرق ملابسه وسريرها دون أن يشعر، لم يكن الكابوس الأول الذي يراوده منذ ليلة معرفتهم بجده، مرت ثلاثة أيام، لم يعد فيها محمد لطبيعته خاصة عندما يحل الليل؛ إذ يهجم عليه القلق وترافقه الكوابيس، واليوم تبول دون أن يدري.
بكى حرجا ووجعا واعتذر وهو ينكس رأسه فربتت على كتفه وقالت: محصلش حاجة يا محمد، قوم معايا نروح الحمام.
- أنا آسف دي أول مرة والله آسف.
- مفيش حاجة يا محمد، محصلش حاجة يا حبيبي.
دخل الحمام اغتسل بينما هي جمعت الملاءة والغطاء وكومتهما أرضا بجوار سريرها وجهزت ملابس لمحمد، خرج من الحمام يلف نفسه في بشكير كبير، مسحت على رأسه وسألته: أساعدك تلبس؟
فهز رأسه رافضا وقال: لا شكرا.
- طيب أنا هاجهز الأوضة اللي جنبنا ننام فيها.
لم تتضايق أو تغضب بل أشفقت عليه من خوفه وذعره وضعفه، عندما تركته واتجهت للغرفة التي تجاوره ساورها الخوف من كونها قد تعجز عن مسئوليته، كانت كل مشاعرها متضادة، ورغم أن قرار كفالة محمد كان لضياء إلا أنها لم تتصور أن تترك محمد لضياء وترحل وحتى محمد كان يرجوها ليبقيان لوقت أطول وكأنه استقر لكونه معها. جهزت سريرا بالغرفة المجاورة وعادت لمحمد وجدته قد ارتدى ملابسه وجلس ساهما على مقعدها المدولب، دموعه تنهمر في صمت تام، فجلست أمامه على ركبتيها وقالت: متزعلش ومتخافش.
ارتمى في صدرها فاحتضنته وظلت تمسح على ظهره بينما تعلق هو بعنقها، انهمرت الدموع من عينيها وظلت تهمس في أذنه: بس يا محمد بس يا حبيبي، عشان خاطري خلاص.
- أنتِ بجد مش هتسيبيني أنتِ وأونكل ضياء؟
- لا يا حبيبي مش هنسيبك.
- أنا خايف قوي، عشان خاطر ربنا يا طنط رقية متسبنيش.
- حاضر يا محمد حاضر.
- أنتِ زعلانة مني عشان اللي عملته؟
- لا والله يا محمد ولا أقدر أزعل منك.
- بجد؟
- أيوة يا حبيبي.
وقفت وهي لا تزال تحمله وشعرت أنها غير قادرة على التوازن به لكنها شددت قبضة ذراعيها عليه وحملته حتى وصلت به للغرفة المجاورة، حاولت وضعه على السرير لكنه ظل متعلقا بعنقها ثم قال راجيا: ممكن تخليني في حضنك؟
تمددت على السرير وعاودت احتضانه حتى نام وكلما حاولت إبعاده عن حضنها انتفض، انقضى الليل وكانت النتيجة أنها لم تنم إلا غفوات متقطعة استيقظت بعدها لتجد محمد قد نام أخيرا ببعض طمأنينة بعيدا عن ذراعيها فحاولت تركه لكنها لم تستطع فضمته ونامت بجواره.

عادت الصورة مع بنت أولت الشاشة ظهرها، كانت تلعب بدميتها،ترتدي فستانا أصفر، وهي تجلس أرضا بغرفة على سجادة خضراء ثم علا صوت أنثوي مع تنبيه أنها مشاركة من إحدى الأمهات المحتضنات التي طلبت المشاركة بدون ظهورها وقالت:
كأم كافلة عايزة أقول لكل عيلة ناوية تاخد الخطوة دي..
لازم تسأل نفسها ليه؟
هل عشاني أنا وعشان أُشبع إحساس الأمومة جوايا؟
عشان أعمل خير وأكون صاحبة فضل على الطفل؟
طيب والطفل؟
كتير من الأسر بتفكر في نفسها وبس
وده حقها لكن الطفل كمان له حق؟
له مشاعر وتجربة لازم نحترمها بحلوها ومرها
والطفل ده زي ماهيشاركنا حياتنا احنا كمان
هنكون جزء من تجربته وحياته
فهنتفق في إيه وهنختلف في إيه؟
لازم كل أسرة تعرف ده
اختفى صوت السيدة، وأتت صورة لأحد الأخصائيين النفسين بدار رعاية، رجل توسط الشاشة بقميص أبيض وجاكت أسود وقال:
في ناس نظرتها لدورها المجتمعي حاجة من اتنين..
إما أنه يزور دور بعينها في أماكن كويسة مستوى عالي من النضافة وجناين وألعاب والولاد حلوة ومهندمة..
وزياراته بتكون يوم اليتيم ويتبرع للدار وممكن يكفل طفل داخل الدار..
ولو فكر في الاحتضان يبقى عايز طفل بالمقاس، هنقول حقه يختار السن المناسب والمواصفات الشكلية المناسبة، طيب الشخصية دي عمرها ما هتطلع بالمقاس..
عايزه بيسمع الكلام وهادي ميعملوش مشاكل..
شاطر في المدرسة.. وهكذا..
المشكلة إنه على أرض الواقع الصور مختلفة..
أغلب الدور وضعها مؤسف، خصوصا الريف والصعيد..
ممكن تلاقي محافظة مفيهاش غير دار أيتام واحدة،
ومطلوب منها تستوعب كل أيتام المحافظة
مع مشرفات مش دايما مؤهلين للتعامل مع الأطفال
أحيانا ضرب وسب وتنمر..
التوعية المجتمعية ودي تشمل:
نظرة الأسر للأطفال سواء كانت مقبلة على الاحتضان
أو في محيطها أسرة أخدت الخطوة دي
والمتطوعين في الدور زيادة عددهم وزيادة وعيهم
نعرف إن الطفل اللي في الدار إنسان له مشاعر

مش بق مفتوح عايز أكل وبطانية وهدوم، لا النظرة دي لازم تتغير.
ختم كلامه وهو يبتسم، وعادت «راندا عادل» وقالت:
فيه أكتر من قانون محتاجين ينظر فيهم..
يعني حرمان أطفال دور الرعاية من دخول الكليات العسكرية أو كليات الشرطة حتى لو تم احتضانهم من قبل أسر برضو ممنوع يدخلوا الكليات دي..
نقطة مهمة.. مش كل الدور في كل المحافظات فيها رعاية لاحقة؛ فيه دور كتير لما الطفل الولد بيوصل لسن ١٨ سنة ده بيسيب الدار..
وملوش مكان، هو بيخرج وخلاص..
ولو بنت بتفضل، بس بتشتغل مشرفة أحيانا؛ بيكون الشغل ده مقابل بقاءها وأحيانا مقابل مرتب بس للأسف لسه مش مفعل
موضوع الرعاية اللاحقة ده في كل الدور.
لو تم احتضانهم الفكرة إنهم لا يتساووا بالأبناء البيولوجيين
في نقطة الحصول على المعاش والتأمين الصحي، وكونهم مكفولين فده مغيرش إنهم ممنوعين من تمثيل مصر في أي بطولة أو مسابقة؛ يعني تفوقوا رياضيا أو دراسيا ملهوش حق يمثلوا مصر..
وإن الأم الكافلة تقدر تاخد أجازة رعاية لطفلها المحتضن زي الطفل البيولوجي
يعني نقطة المعاش دي تحديدا
بعد ما الأطفال اتربوا وكبروا وعاشوا حياة كريمة مع الأهل
فلما الأهل دول توفاهم الله
مفيش معاش يعين الأبناء دول يكملوا.
راندا عادل
مدير التخطيط المؤسسي
والجودة وإدارة الأزمات
لمؤسسة الاحتضان في مصر
تتابعت صور من فيديو قديم لمشرف يضرب الأطفال بدار رعاية، عُرض منه لقطتان ثم غابت الصورة، وجاءت صورة من دار رعاية أخرى لطفلة تتأرجح على أرجوحة وتضحك، وصورة بعدها لأب يحمل طفلا وتسير بجواره زوجته وهما يخرجان بطفل ويغادران دار رعاية.
ثم عادت الصورة مع «يمنى دحروج»
الأمهات بالذات بترسم أحلام جميلة بوجود الطفل
في حياتها وبعدها تتصدم..
يعني أم تكلمني مجهدة جدا.. هي معاها طفلة رضيعة مش عارفة تنام..
البنت مش عارفة تتأقلم..
الأم مكنتش متخيلة الصعوبات دي..
وللاسف - الأهل - العيلة الكبيرة بيكونوا شايفين إن أكبر دعم هو إننا معرضناش الفكرة..
مش إن أنا قدمت للأم دي مساعدة لأنها ولأول مرة في حياتها بقت أم..
الأمهات بتحتاج الدعم..
الدعم ثم الدعم ثم الدعم..

من البيت، الزوج، الأهل والمجتمع.
يمنى دحروج - رئيس مجلس إدارة - مؤسسة الاحتضان في مصر
غابت صورة يمنى ثم توسطت الشاشة صورة رجل بدأ بالتعريف بنفسه..
مهندس تامر سيد
مهندس مدني ومن محافظة القاهرة
وبابا حور
ابتسم ثم تابع
-
أخدنا قرار الاحتضان امتى؟
هو الموضوع في حد ذاته بدأ معنا من سنة ٢٠١٧
أنا كنت صاحب الفكرة الأولى الحمد لله، اقترحت على زوجتي أمنية إننا ناخد الخطوة ونسأل على الإجراءات وكده، طبعا الوضع كان أصعب عن دلوقتي، دلوقتي الحمد لله بقى فيه مبادرات كتير ومؤسسات كتير داعمة للفكرة..
منهم مؤسسة الاحتضان في مصر..
-
لما فكرنا بالكفالة كنا لسه مش عارفين هل اللي في دماغنا إننا نكفل؟
مش التبني موجود في مصر ولا لا؟
بدأت زوجتي أمنية تسأل وتدور وتروح الوزارة لغاية ما ربنا وفقنا وعرفنا إن في حاجة زي دي بتحصل بس مش منتشرة فأخدنا الخطوات..
وكانت صعبة الحقيقة؛ أخدت مننا سنة..
دلوقتي ممكن تاخدلها شهر أو شهرين مع الانتشار وتسهيل الإجراءات..
أول ما استلمنا الموافقة
بدأنا ناخد الخطوة الأولى؛ وهي نروح دور الرعاية ونشوف طفل أو طفلة تبقى هي بنتنا..
فما أحلاها وما أصعبها..
كنا بنروح الدور ندور على عمر شهور، ففيه دور تقولنا مفيش أطفال والأعمار كبيرة واحنا كنا متفقين على بنت وعلى إن زوجتي ترضعها، لحد ما دخلنا دار ولقينا بنتنا
«حور»
أول ما طلعت كان عمرها ٣ شهور شيلتها على إيدي ومسكت هي فيا وقولت خلاص هي دي بنتنا أنا وأمنية.
-
المخاوف؟ طيب
أنا أقدر أقول إننا كنا واخدين الموضوع من جانب قوة
احنا واثقين من قرارنا وإننا عاملين ده لله ورسوله
فاحنا مش خايفين من حاجة ولا هايبين حاجة
بطبيعة الحال الناس مش بتستقر على معلومة ولا بتاخد جانب واحد طول الوقت..
هتلاقي ناس ضدك وناس معاك وهكذا، ولكن وهاحط تحت لكن ألف خط

مهدنا لنفسنا مش للناس
لا، لنفسنا.. احنا هنقدر نعمل الخطوة دي ولا لا؟
فالحمدلله بفضل الله لقينا عندنا قوة فتوكلنا على الله.
-
بدأنا نفكر هنقدمها للعيلة ازاي؛ العيلة عندي
وعند أمنية فعملنا إيه.. عملنا
«سبوع»
سميناه
«حفل استقبال حور»
عزمنا كل الناس اللي نعرفه واللي منعرفوش، ليه؟
أنا عايز أقول لكل الناس دي مرة واحدة
أنا كفلت بنتي حور
عشان كل الناس تعرف إنها بقت مسئولة مني، واللي بيحب تامر وأمنية لازم يحب بنتهم..
والحمد لله قدرنا ناخد كل الناس في صفنا.
-
وحقيقي الأولاد بالاحتضان لهم جاذبية وقبول سبحان الله..
وعلى قد ما ربنا ما يدينا من حنان وعطاء..
عمرنا ما هنتأخر عنها..
المهندس تامر السيد
مهندس إنشاءات والمنسق العام
لمؤسسة الاحتضان في مصر
ظهرت صور شوارع الإسكندرية وسيارات التاكسي الأصفر والأسود بالتزامن مع صوت البحر. ثم ظهرت شابة تفتح باب بيتها وتستقبل أحد صناع الفيلم، ثم جلست وفي حجرها طفل وبدأت تتحدث:
ممكن أعرفني إن أنا الآنسة مامي؟
أنا مامت نور وهو فعلا نور عيني دلوقتي
احنا دايما بنقول كلنا مش احنا اللي بنختارهم، هما اللي بيختارونا وأنا كنت طول الوقت باقول أنا أكيد هاكفل بنوتة..
لحد ما شوفت نور
نور أنا روحت الدار أصلا على أساس إنه فيه بنوتة عمرها شهور واتفاجئت إنه ولد بس كانت أحلى مفاجأة.
أنا واخدة القرار من سنة..
كنت مقررة إني هاكفل.. أنا عايشة بس مع والدتي بعد وفاة والدي وبفضل الله هي شجعتني، وقررت القرار ده وخلصت الإجراءات وبدأت رحلة البحث، شوفت أولاد كتير فعلا يعني خلاص ممكن ٨ شهور بحث.
الرضاعة..
أنا أخدت بفتوى الأزهر..

وتابعت بعدها من خلال دكتورة، أخدنا أدوية والحمد لله رضعت نور ومكتفتش بالخمس رضعات المشبعات..
أنا أخدته وهو عنده ٦ شهور ولما قدرت أرضعه كملت لحد ما تم سنة.
أكيد بيكون في جوانب تعب
بس التعب بيهون لأنهم ولادنا
مش فارق معايا أعرف حاجة عن اللي فات قد ما فارق معايا إني أدعمه يعدي اللي جاي..
هاقوله الحقيقية بالتدريج وهيعرف إني فخورة بكونه ابني..
وإن اختلافه ميقللش منه وأنا كفيلة بأي كلمة تتقاله وعمري ما هاسمح لحد يبصله بس بصة تزعله لأنه ابني ومحدش بيقبل الهوا على ابنه..
اختفت الصورة شيئا فشيئا حتى ظهرت سيدة توسطت الشاشة ترتدي الأخضر وحجابها أبيض وبدأت كلامها:
«واحدة من النقط المهمة في قرار الاحتضان..
الظن إننا بنفتح صفحة جديدة بوجود الطفل ده
وكأن كل اللي قبله لم يكن..
خصوصا لو الأسرة دي مرت بحزن ومشاكل أو فقد سببلها ألم نفسي كبير
هنا الأسرة بتكون في انتظار إن الطفل هييجي
يخلي البيت جنة وكل مشاكلنا هتتحل
فبتبقى صدمة كبيرة أحيانا على الأم بالذات لما تكتشف إنه لا!
بتبدأ تلوم نفسها إنها متجاوزتش المشاكل دي..
بتحس بخوف أحيانا؛ إنها ناقمة أو مش بتحمد ربنا
فيحصل جلد للذات وعدم تقبل للحزن
وللأسف لو فكرت تتكلم، دايرة اللوم دي بتكبر ودي مشكلة تانية
يعني أحيانا بتصادف
أنتِ اللي عملتِ في نفسك كده
أو
ازاي بعد كل السعى ده زعلانة؟
مهم جدا نفهم مشاعرنا
ونعترف بوجودها ونفهم إنه خروجها وتعبيرنا عنها رحمة من ربنا بينا..
ومفيش تعارض بين ده وبين الرضا بقضاء الله..
فنتقبلها ونستوعبها ولازم نديها وقتها..
ونطلب الدعم، بس نختار اللي يعرف يدعمنا صح.
دكتورة مريم الشرقاوي
أخصائي الدعم النفسي
مؤسسة الاحتضان في مصر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٨)

استيقظت قبل محمد، فقامت بهدوء من جواره كي لا تزعجه واتجهت لغرفتها، وجدت أم زينة قد فتحت شرفتها على مصراعيها، ثم لاحظت تأففها وقد قالت ما إن رأت رقية: هو المحروس ده عملها على نفسه؟

- اسمه محمد يا أم زينة.

- طيب وأنتِ عليكِ من ده بإيه بس؟ مش الست والدتك قالتلك المحامي يتصرف وتخلي مسئوليتك منه؟

لم يكن لديها طاقة لترد فصمتت، لكن أم زينة لم تصمت، ظلت تعيد كلمات والدتها وكأنها وصية حتى تركت لها رقية الغرفة بعدما طلبت منها تحضير الفطور لها ولمحمد، نزلت لركن القهوة وأعدت لنفسها كوبا وجلست بدون طاقة تحتسيه وهي تقاوم تثاؤبها من آن لآخر. انتهت أم زينة من ترتيب غرفتها فصعدت لها رقية، سحبت من خزانتها ملابسَ لها وبشكير مقررة أخذ حمام دافئ علها تستفيق، وضعت ما أخرجته فوق كرسيها المدولب فلمحت أوراق تحضير الفيلم الموضوعة بجوار حاسوبها فزاد إحباطها وهي ترى فيلهما سرابا، فزفرت وألقت بالأوراق، ثم أسندت كفيها على المكتب وقاومت بكاءها إلا أن دمية ضياء والتي جاورت الأوراق بدت وكأنها تبتسم لها فابتسمت. أخذت حمامها وخرجت، ارتدت بنطالا جينز أزرق وسويت شيرت برتقالي وصففت شعرها واتجهت لتُوقظ محمد.

بدا مرهقا وهو يتحرك معها لغرفتها ليغسل وجهه ويفرش أسنانه ولم يملك أي شهية لتناول الطعام، مسحت على شعره وسألته: مش عايز تاكل ليه؟

- ماليش نفس.

عاوده البكاء فحملته في حجرها وضمته لصدرها وقالت: وبعدين بقى يا محمد.

- ودِيني الدار خلاص، أنا عارف إنكم زهقتوا مني.

- مين قال كده؟

- أنا عارف.

مسحت دموعه وتشبثت به وقالت: لا مش عارف، مش إنك مهم قوي عندنا وإننا بنحبك جدا وإن وجودك هو اللي يمكن فرق معانا، وإدى حياتنا طعم ومعنى.

- أنا؟

- أيوة، أنت مهم جدا عندنا يا محمد، مش عندي أنا بس، أنا وأونكل ضياء وتيتة ماجدة وجدو فؤاد.

- طيب اللي أنا عملته امبارح و.... يعني أنتِ مش عارفة تنامي من يوم ما مشى جدو، صح؟

عادت دموعه تنهمر فزادت ضمته فسألها: أنا ليه باعمل كده؟ مع إني معاكم ....

- عشان خايف، الخوف هو اللي بيخلينا مش عارفين نبقى مبسوطين بأي حاجة.

- هو أنا ممكن أبطل أخاف؟

- آه طبعا.

أمسكت بكفه بين يديها وقالت وهي تطوي أصابعه إصبع بعد إصبع: أول حاجة تبقى عارف إن ربنا هيديلك دايما ناس تحبك ممكن متكونش لسه قابلتهم بس أكيد هتقابلهم، تاني حاجة تاكل كويس جدا

عشان تفضل قوي، تالت حاجة نرجع نرسم ونلعب.
- ونروح عند تيتة ماجدة وجدو فؤاد.
- صح، ونرجع نروح الملاهي تاني.
- وأنزل أركب العجلة.
- ونرجع نلعب بالكرة.
- ألعب بالبلابل.
- وتاكل الساندوتش اللي أنا عملاهولك.
كلاهما ضحك، فأمسكت شطيرته بيدها وبدأت تطعمه وهي تمني نفسها يوما يمر عليه بحال أفضل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين جمعتهما سيارته بدا الإرهاق جليا على ملامحها، مر يومان والوضع رغم مجاهدتها لا يتحسن، لم تستطع الكلام فظلت صامتة لفترة فقرر قطع الصمت وسؤالها عن محمد لكنه عندما انتهى من كلامه ونظر ناحيتها وجدها نامت، ابتسم مشفقا وأكمل طريقه صامتا حتى وصلا لعيادة الطبيبة، عندها علا نداؤه: رقية .... يا أم محمد.
انتفضت فذهلت من نفسها وسألته متوترة: أنا نمت؟
- نمتِ بس؟
مسحت وجهها بكفيها فعلق: لسه شوية على ميعاد الدكتورة، تعالي نشرب قهوة في الكافيه اللي جنب العيادة.
وافقته وجمعتهما طاولة وكوبان قهوة وقد حكت له عن أيامها الفائتة مع محمد وقالت: المشكلة إننا داخلين على أسبوع، لا محمد عارف ينام ولا أنا عارفة أنام.
- طيب إيه رأيك لو أخدته منك الأسبوع ده؟
- لا يا ضياء أخاف محمد يفتكر إني زعلانة منه أو مستتقلة وجوده.
- بس الوضع ده مش هينفع، كمان الكفالة هتكون معايا يعني المفروض محمد يتعود على وجوده عندي.
انقبض قلبها ما إن تخيلت أن محمد قد يفارقها، رغم أنه واقع عليها إقراره.. وتحججت: لسه بدري يا ضياء، ثم محمد لازم يتمهدله هو مش ناقص.
نبرتها وطريقة ردها أشعرته برفضها التخلي عن محمد فلم يجادلها..أنهيا قهوتهما فقاما ليكملا زيارتهما للطبيبة وانتظرا حتى دخلا وجمعهما مكتبها، كانت الطبيبة اختيار ضياء بعدما رأى لها عدة فيديوهات على اليوتيوب خاصة بالمشاكل النفسية لدى الأطفال، وواحد منها شمل الأطفال المكفولين لدى أسر غير أسرهم، سمعت حكايتهما مع محمد منذ بدايتها ثم توالت الأسئلة وقد بدأت تسجيل إجابتهما عندها.
- هي آخر مرة شاف فيها والدته كانت امتى؟
أجابتها رقية: مش عارفة بالظبط لأنه كان مع جده قبل الحادثة.
- طيب هو حاليا بيسأل عليها أو بيعيط عشان يروحلها؟ ولا الموضوع اتغير بعد ظهور جده؟
- قبل ما نعرف الحقيقة تقريبا كل يوم كان بيسأل، لكن من بعد ما عرفنا ومن بعد ظهور جده بقى يسألني أنتم هتودوني الدار ولا لا، ولما باقوله لا بيسألني هو ينفع أعيش معاكم؟
- بتقوليله إيه؟

- بصراحة بيصعب عليا أكسر خاطره، محمد مش عايزنا نسيبه وطول الوقت خايف جدا.
- طيب هو في نية للكفالة عندكم؟
- أيوة أنا ناوي بإذن الله.
- أنتم زملا زي ما فهمت منكم، ممكن أعرف الحالة الاجتماعية لكل واحد؟
- أنا مش مرتبطة.
- ولا أنا.
استدركت رقية قائلة: هو محمد من يوم الحادثة وهو معايا ولسه معايا لحد دلوقتي.
سجلت ما قالته رقية ثم نظرت لضياء وسألته: وقرار الكفالة هو قرارك يا أستاذ ضياء مش كده؟
- أيوة بإذن الله.
- محمد عنده علم بالقرار ده؟
- لا لسه، قولنا لما نخلص الأوراق الأول.
- كويس جدا، وأعتقد الوقت ده فرصة تفكر كويس، يعني في حال ارتبطت وزوجة حضرتك رفضت محمد، هل عندك إجابة هتعمل إيه معاه؟
بدا القلق على وجه ضياء وكأنه لم يتوقع السؤال فأكملت: هل هتسيب محمد لوالدك ووالدتك ولا هترجعه الدار؟
المزيد من الأسئلة فرضت المزيد من التوتر فأجاب: أنا مبفكرش في الموضوع ده.
- وفي حال فكرت، أو حصل أي ظرف.
- بإذن الله هيفضل معايا مش هتخلى عنه.
- تمام، على كل حال متبلغش الولد بحاجة إلا وأنت متأكد منها وفكر كويس في القرار عشان أي تخلي هيتعرضله محمد مرة تانية ممكن حرفيا يدمرله حياته وده مش كلام مبالغة للأسف.
لازمه خوف ونظر لرقية فوجدها توترت، بينما الطبيبة وجهت سؤالها لها: أخبار النوم إيه؟
- صعب جدا، تقريبا الأسبوع ده عدى علينا من غير نوم.
سردت كل ما مر بينهما خلال الأسبوع الفائت ودونته الطبيبة بعدها حتى أنهت كلامها، فسألتها: يعني إجمالا الأعراض، اضطرابات نوم وأكل وفقدان شهية، وتبول لاإرادي، فيه صداع أو أي شكوى تانية؟
- لا.
انتهت من تدوين إجاباتهما ثم قالت وهي تطالعهما: كل الأعراض اللي اتكلمتِ فيها يا أستاذة رقية كلها متوقعة طبعا نتيجة متلازمة التخلي.
استوقفهما الاسم، بينما سألتها رقية: ده مرض؟
- حالة نفسية سلوكية، ببساطة لو طفل اتخلي عنه واحد من والديه سواء قدرا زي إنهم يتوفوا أو عمدا زي الهجر أو الطلاق فالطفل عمره ما بيقدر ينسى إنه في لحظة ما فقد أسرته وأهم ناس عنده، ردة الفعل بتختلف من طفل لطفل حسب تفاصيل كل حالة، لكن أصعبها هي التخلي في حالة الطفل مجهول النسب وده لأنه بيحس بالتخلي من وهو لسه جنين في رحم والدته وغالبا بيفتقد لما يتولد ريحة الأم وصوتها فبيكون مدرك إنها اتخلت عنه.
زلزلت الكلمات ضياء، أدرك أن جُرحه المتقيح لا يزال حيا، لم ينسه بل طمره في ذاكرة بعيدة وحين حل الحديث عن الفعل ارتج صداه بقلبه.

- طيب ونفسيا الوضع بيكون إيه؟
شعر ضياء أنه فقد بوصلة استيعابه لحوارهما وكأن كل أسئلته التي جهزها مُحيت من ذاكرته، فتابع رقية وهي تسألها وحاول تجاهل مشاعره وهو يسمع إجاباتها: أكتر شعورين هيلازموا محمد هما فقدان الأمان، وعدم تصديق وجود مشاعر زي الحب والحنان والاحتواء.
- حتى لو لقي ناس بتحبه؟
- ساعتها ده هيساعده يتجاوز جزء من المشكلة، يعني الأسرة اللي بتراعى الطفل لو قدرت تعوضه بيقدر يتكيف مع «التخلي» لكن مش بيقدر يتجاوزه بشكل نهائي.
تنهد ضياء وفكر أن يخرج من الغرفة لكنه أخرج منديلا ومسح وجهه، بينما الطبيبة تابعت: بالمناسبة انتم أخدتوا خطوات حتى من غير ما تقصدوا ساعدتوا محمد يحس باهتمامكم وده ظهر في رسوماته وأكيد هنكمل على الخطوات اللي بدأتوها.
- هيحتاج لأي أدوية؟
- لا، في سن محمد هنعتمد العلاج النفسي والتعديل السلوكي، من خلال تلت حاجات
"Hug therapy - Talk therapy - Art therapy"
- ده علاج؟
- أيوة، الكلام والحضن والرسم، هنعتمد القصص نحكيها ونشجعه يقول رأيه ويتكلم عن نفسه ويعبر عن مخاوفه وحزنه، وهنشجعه على الرسم، نخرج في أماكن مفتوحة في جناين وشمس وهوا، ودايما نحضنه ونطبطب عليه.
ابتسمت رقية وقد تأثرت ثم تابعت الطبيبة: العلاج الدوائي الوحيد هيكون فيتامينات لأن متلازمة التخلي بتأثر جسمانيا على المناعة والحالة العامة للطفل، فناكل كويس ونهتم بالتغذية، والمهم لا إفراط ولا تفريط، يعني نوجه ونفَهم في حالة الغلط ونكافئ ونشجع التصرفات الصح.
وضروري أشوف محمد الأسبوع الجاي، تمام؟
- تمام يا دكتورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عادا للسيارة لاحظت شرود ضياء وضيقه، كانت تعرف السبب فنظرت نحوه مشفقة، فلما لاحظ نظراتها خشي أن تسأله أو أن يتحدثا عما قالته الطبيبة فبادر قائلا: تعرفي كل الكلام اللي قالته الدكتورة عن محمد ممكن نحتاجه في الفيلم، هي أخبار الفيلم إيه صحيح؟
شعرت أنه يريد تجاوز تأثير ما قالته الطبيبة عليه فأجابته: الفترة اللي فاتت من الضغط والإحباط كنت بافكر ألغي الفكرة.
- اوعي تعملي كده، عيلة محمد مش مقياس نقيس عليه.
- عندك حق، بعد مقابلة الدكتورة بقيت شايفة إن الكلام اللي وصلنا ده لازم يوصل لكل الناس، وكمان معاناة الأطفال دي وحياتهم في الدور ونظرة الناس ليهم.
- فيه تفاصيل كتير احنا مكوناش نعرفها ويمكن محمد يكون سبب عشان الناس تعرفها.
- خلاص خلينا نبدأ على طول بإذن الله.
ابتسم فابتسمت، ثم استكملا طريقهما حتى وصلا للشئون الاجتماعية، سألا عن شروط الكفالة فبدأت الموظفة تشرح وتسمع منهما حتى ختمت كلامها بـ: للأسف القوانين مش منطبقة عليك يا أستاذ ضياء.

- ليه؟
- لأن حضرتك مش متجوز، لازم تكون متجوز ويكون عدى على جوازك مش أقل من ٣ سنين.
- حضرتك متأكدة؟
- طبعا، الست بس هي اللي ممكن تكفل لو مش متجوزة.
انتبهت رقية فسألتها: يعني أنا ممكن أكفل؟
- حسب السن، لو فوق التلاتين حقك، إنما لو أقل من التلاتين، لا.
كلاهما أحبط لدرجة امتقع وجهاهما، بينما الموظفة تابعت وهي توجه كلامها لرقية: بس لو والدك موافق ممكن الورق يتعملك على أسرتك نفسها ولما توصلي التلاتين ترجعي تعملي ورق الطفل باسمك.
- يعني ينفع الوالد والوالدة؟
- آه طبعا ينفع.. طالما متجاوزوش الستين ينفع.
نظرت رقية لوجه ضياء المبهوت ولم تعلق وقد وقف وقال: يعني مفيش أي مخرج؟
- والله ده ممكن يتحدد في اجتماع اللجنة العليا هي ممكن تعمل استثناءات في حالات بعينها.
تهللت أساريرهما وكأن انفراجة أمل أتتهما، لكن الموظفة تابعت: بس دي مش هتنعقد قبل شهر ويا توافق يا متوافقش يعني مش مضمونة، ده غير وضع الطفل معاكم.
استدرك ضياء وقال: ما هو تايه عن أهله هيروح فين؟
- أنا شايفة لو الأستاذة عندها النية هي فرصتها أفضل، الورق ممكن يتعمل على أسرتها ودلوقتي مبقاش ياخد وقت زي الأول.
بنبرة مترددة وخائفة سألت: طيب في حال إن ظروفي مسمحتش واللجنة العليا مقبلتش إننا نكفل الطفل، هيحصل إيه ساعتها؟
- هو لو أنتم مش عايزين الولد يرجع دار الرعاية مش هيكون قدامكم إلا سكة واحدة بس.
- إيه؟
- نستنى لما أسرة يكون معاها جواب المشاهدة وساعتها الأسرة تتواصل معاكم ويشوفوا الولد وياخدوه هما يكفلوه وهيستلموا الولد هنا من الشئون من غير ما يروح دار.
- في أي حاجة تانية؟
- لا دي كده كل السكك اللي قدامكم.
استاءا ورحلا ولما عادا للسيارة تلقفهما الشرود والصمت حتى عادا لبيت ضياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ماجدة بمفردها عندما وصلا، سألها عن محمد فأخبرته أنه خرج برفقة فؤاد ليقود دراجته بالشوارع المحيطة بمنزلهم فقرر ضياء اللحاق بهما وخرج.
بدا واضحا لماجدة ضيقه فسألت رقية: هو إيه اللي حصل؟
- موظفة الشئون قالت إن قوانين الكفالة متنطبقش علينا.
لم تقل صدمتها عن صدمتهما، أشارت على رقية أن يجلسا بالشرفة، فجمعهما المقعدان الخوص، وشرحت لها رقية ما قالته موظفة الشئون فاغتمت وعلقت: طيب وبعدين؟ كده محمد هيرجع الملجأ برضو؟

- هي قالت والدي أو والدتي ممكن، لكن أنا عارفة مجرد ما أقولهم هيكون إيه ردهم، بس هي قالت ممكن تساعدنا نشوف أسرة ياخدوه ده لو متعملناش استثناء، وإن كان ده بيتعمل في حالات معينة يعني جايز ينفع وجايز لا.
- طيب وأنتم هتعملوا إيه دلوقتي؟
سمعا ضجيج بقيتهم وضياء يفتح الباب وقد دخل خلفه محمد وفؤاد، ركض محمد ناحيتهما ووقف يحكي: ده احنا لفينا كتير جدا وسبقت جدو فؤاد وكسبته.
- اتبسطت أهم حاجة؟
- جدا جدا.
- طيب تعالى معايا يا أستاذ عشان تغسل إيدك ووشك.
حاوطت كتفيه بذراعيها ووقفت بجواره وهو يغسل وجهه ويديه ثم أردف: بس عارفة الشوارع هنا شبه بعض، أنا خوفت أتوه بس جدو فؤاد قالي متخافش أنا هافضل ماشي جنبك.
لاحظت ابتسامته ونبرة الحماس في صوته وخُيل لها أنه بينهم يتوهج، حين يكونوا أربعة وهو خامسهم، فقالت وابتسامة تعلو وجهها: بتبقى مبسوط لما نيجي هنا يا محمد؟
- قوي قوي، هو مينفعش نعيش معاهم هنا؟
- يا ريت.
حين قالها ضياء فجأة، بدا وكأن أعينهم جميعا تترصده، وماجدة وفؤاد يتبادلان الابتسامات بينهما، فتدارك ضياء حرجه وقال لمحمد: ما تيجي معايا نحضر السفرة سوا.
- يلا.
جمعهما غداء ماجدة، مكرونة بالبشاميل وفراخ محمرة، وبعده جمع محمد مع ضياء بعض الأطباق وظلا بالمطبخ فاستوقف البقية صوت الضحك والمزاح، فلما خرجا من المطبخ قال فؤاد: ما تضحكونا معاكم طيب.
فأجابه محمد: أنا كنت باقول لأونكل ضياء إني هاجيبله حاجة حلوة عشان خلص أكله كله.
ضحكوا وسألته رقية: هتجيبله إيه بقى؟
- اممم مارشيميلو ومصاصة، وطنط رقية هاجيبلها غزل البنات.
- وأنا يا محمد؟
سألته ماجدة وهي تكمل رفع بقية الأطباق بمساعدة رقية فقال: اممم مش عارف، لا افتكرت.. شوكولاتة بجوز الهند عشان تيتة ماجدة بتحب جوز الهند.
- وجدو فؤاد؟
- شوكولاتة من غير جوز الهند عشان هو بيضايقه لما يدخل في سنانه.
كلهم ضحكوا فحمله ضياء لأعلى وسأله: تلعب كورة؟
- ماشي.
أنزله فأسرعا خلف بعضهما ونزلا لحوش المنزل بينما وقفت رقية بالشرفة تشاهدهما، جاورها فؤاد يشاهدهما معها ثم نظر لرقية وقال والبسمة تملأ وجهه: عارفة يا رقية، يوم ما بتكونوا هنا مع ضياء، البيت بيتملا علينا بضحك ولعب محمد.
- احنا كمان يا عمي، بنفرح قوي باليوم اللي بنقضيه معاكم.
- محمد ده نعمة كبيرة قوي، يا رب يكون من نصيبنا إنه يفضل وسطينا.

تأملت ملامحه وتعجبت ثم قالت: عندي سؤال وأتمنى ميضايقش حضرتك.
- أنتِ تسألي زي ما أنتِ عايزة يا رقية.
ابتسمت وسألته: لما قررت تاخد ضياء محدش عارض حضرتك؟
- يووه، كتير.. أولهم والدي، اتخانق معايا خناقة، لا مش خناقة واحدة خناقات.
طالعت وجهه قلقة فأردف: وقتها مقتنعش إن ممكن يكون في علاقة بين اتنين ملهاش مسمى لكن ليها معنى، قالي مش ابنك، قولتله هو محتاجلي وأنا محتاجله، قالي يوم ما أبوه أو أمه يقولوله تعالى هسيبك ويمشي، قولت لنفسي هو لو ده حصل إيه يزعلني، ما الناس بتكون لها مسمياتها وبتتفارق، الأب اللي بيسافر ويسيب عياله، والأم اللي بتطلق وتبعد، الأخوات اللي بتشغلهم عن بعضهم هموم الدنيا، فليه أحكم على علاقة بالبتر لمجرد إن ملهاش اسم أو هنبدأ تسميتها بـ» زي»؟ ليه أعيش في بيت مالوش طعم بس لأني خايف الناس تتكلم؟ أو خايف ضياء يمشي؟ رميت خوفي ورا ضهري وتبت في ضياء.
- وبعدين؟
- وبعدين البيت اتملا فرحة، طفل جميل منور وبيقولي بابا، هاعوز إيه من الدنيا أكتر من كده؟ ومع الوقت أبويا بقى بيحب ضياء أكتر مني، هو اللي حببه في التصوير وكانوا دايما سوا أكتر مني، تخيلي؟
اتسعت ابتسامتها وهمست: حضرتك بتديني أمل، وأنا الأمل بيخوفني.
- متخافيش، استبشري دايما في الله خير يا رقية، ربنا هيبارك طالما نوايانا خير.
زادت ابتسامتها بينما أشار محمد لفؤاد كي يرافقهما فقال: استنوني نازلكم.
استأذنها ونزل، وجاءت ماجدة تحمل بيدها طبق «كيكة البرتقال» مع شاي القرنفل، مدت يدها بالطبق لرقية وقالت باسمة: بقيت أعملها يوم مجيتك عشان عارفة إنك بتحبيها.
- متشكرة قوي يا طنط ماجدة.
أكلت منها قطعة فكانت لها حلاوة خاصة، حلوي بطعم الاهتمام والتقدير، ذكرتها كم افتقدت أن يخصها أحد بما تحبه لدرجة استشعرتها أن محمد ليس وحده من يخاف زوال أيامه معهم، فتمنت لو أن كل أيامهما تظل هنا أو الزمان بهم يتوقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم مختلف بدأ ببحثها عن صفحات مبادرات الكفالة والاحتضان وقد بدأت تصيغ رؤية لفيلمها، راسلت عدة صفحات تسألهم عن إمكانية التعاون معها من أجل تصوير فيلم، ثم كتبت بورقة:
* هدف الفيلم
* فهم معنى مسئولية الناس تجاه الأطفال بدور الرعاية
* سواء كفالتهم بالبيوت أو بقوا بالدور.
أنهت عملها وقررت أن يكون يومها مع محمد مميزا، فتحت خزانة ملابسها وبحثت عن ملابس مناسبة فاختارت بنطال offwhite وسويت شيرت ment وارتدتهما ونزلت لحديقة فيلتها، وضعت لوحة على حامل وساعدتها أم زينة فوضعت منضدة صغيرة بجوار اللوحة ووضعت عليها ألوان ماء ثم نادت محمد، وقبل أن يخرجا لحديقة الفيلا وضعت يدها فوق عينيه وحملته حتى وصلا أمام اللوحة وقالت: جاهز؟
هز رأسه إيجابا فرفعت يديها من فوق عينيه وقالت: دي الألوان اللي قلت نفسك ترسم بيهم؟

علت ضحكته وقال: أيوة هم.
- ورِيني بقى أحلى رسم.
جلبت لهما أم زينة مقعدين فجلسا متجاورين، وبدأ هو الرسم على اللوحة، رسم شمسا وسحابا وبيتا، ثم رسم حلمه بألا يكون وحيدا، شبك يده بيد رقية وضياء والضحكة تملأ وجوههم، التفت ناحيتها وسألها: دي ولا اللي متعلقة في أوضتنا؟
- اختيار صعب، عشان الاتنين أحلى من بعض.
- طيب أنتِ مش هترسمي معايا؟
حثها فأمسكت فرشاة واحتارت فيما ترسم فرسمت وردة وقالت: شبهك.
نادتها أم زينة فالتفتت فأخبرتها: باباكِ بيرن عليكِ يا ست رقية.
طوقت كتفي محمد وقالت: هارد وأرجعلك، معانا لوح كتير جدا، ماشي؟
- ماشي.
ركضت حتى وصلت لغرفتها وأمسكت هاتفها وردت، فجاءها صوت والدتها متأففا وهي تسأل: هي إيه الحكاية بالظبط يا رقية؟ هو الولد ده هيفضل في الفيلا لحد امتى؟
شعرت من تحفز والدتها أن هناك من سبقها كالعادة ودس أنفه وحكى لوالدتها ما فاتها.
- مش قلتِ لنا لقيتي أهله وجده هييجي ياخده؟ إيه اللي حصل؟ ورجع تاني ليه؟
- ممكن تديني فرصة أشرحلك.
- تشرحيلي إيه يا روكا؟ ناقصين ولد بيعملها على نفسه وأم زينة تشيل وتحط، سيادتك سيبتِ خطيبك وشغلك وحياتك كلها وفرغتِ نفسك لي بسلامته، مفيش وراكِ حاجة خلاص؟
زفرت وقالت: ماما، أنا محتاجة أتكلم معاكم ضروري أنتِ وبابا، ممكن؟
- ماشي.
- video call
وافقاها ففتحت حاسوبها وجلست على كرسيها، بينما والداها توسطا الشاشة أمامها فقالت: أنا فيه موضوع عايزة أتكلم معاكم فيه، هو يخص محمد، الولد اللي معايا في الفيلا.
- خير؟
قال والدها باقتضاب، فحاولت التماسك وتابعت: أنا عايزة أكفل محمد.
لم يفهما ما قالته فسألها والدها بهدوء لم تعتده: يعني إيه؟
استجمعت جملها كي تحسن صياغة ما ستقوله وشرحت: محمد كان مع عيلة أخدته من ملجأ وربته عندها وبعدين هم عايزين يرجعوه تاني الدار دي، هو طفل جميل قوي، كل اللي محتاجه إنه يعيش مع عيلة، وأنا كل اللي بتمناه توافقوا إننا نبقى العيلة دي.
- أنتِ اتجننتِ يا رقية؟
هتفت والدتها فاستوقفها كامل بإشارة من يده وسأل رقية بذات الهدوء: هو مش ده اللي قولتي عليه ابن ناس ومتعلم كويس؟ طلع ابن ملاجئ يا رقية.
- خليني أشرحلك، هو أصلا كان معاهم من وهو عمره شهور.
- وجايين يرجعوه دلوقتي ليه؟
تلجلجت وامتقع وجهها وقالت: اممم هي أصل مامت الولد.. حامل فقرروا يرجعوه.
- آه .....

قالها وسكت ثم بعد ثوانٍ قال: اممم كملي.
- مفيش حاجة تاني هو الولد مصيره هيكون الملجأ فأنا عايزة آخده.
- خلصتِ كلامك .....
شعرت بكلامه يحاصرها فسكتت فزعق: طيب اسمعي بقى، كل المصايب اللي عملتيها كوم، والمصيبة دي كوم لوحدها، الولد ده هيمشي من بيتي.
- هيروح فين بس؟
- يغور في داهية المهم ميقعدش في بيتي، فاهمة ولا لا؟
- «طنط رقية»
سمعت صوت محمد فأدركت أنه خلفها، وجدت وجهه باكيا ولم يحتج ليفسر لها أن ذلك الرجل بشاشتها قد ذكره بجده حين قال نفس كلامه.
(٩)
أُعدنا لنقطة الصفر؟
تساءلت بعدما ركضت خلفه فوجدته بسرير بالغرفة المجاورة متدثرا كله بغطاء، سمعت صوته فسحبت الغطاء من فوقه فدس رأسه بالوسادة، ظلت تترجى: قوم يا محمد، قوم يا حبيبي هنتكلم بالراحة.
علا صوت نحيبه فقالت: طيب أنا آسفة، عشان خاطري اسمعني.
يأست فجلست بجواره صامتة، بضعف لم يقل عن ضعفه وخوف لم يقل عن خوفه حتى شعرت به هدأ، مسحت على رأسه فقام وجلس على ركبتيه قبالتها، فحملته وأجلسته بحجرها وضمته لصدرها بعدما مسحت دموعه وقالت: متزعلش يا محمد، أنا مقدرش على زعلك أبدا.
- أنا مش زعلان منك، أنا زعلان عشان كل الناس مش عايزاني.
- لا طبعا مش كل الناس، أنا وأونكل ضياء وتيتة ماجدة وجدو فؤاد عايزينك وبنحبك.
احتضنته ثم قالت: بص يا محمد، احنا عمرنا ما هنلاقي كل الناس في الدنيا بتحبنا، دايما هيقابلنا ناس بتحبنا وهيقابلنا ناس بتكرهنا، واحنا اللي بنختار؛ اللي بيحبونا ونبقى معاهم واللي مش بيحبونا نبعد عنهم.
- ما أنا مش باختار، أنا دايما بالاقي الناس اللي بحبها بتمشي وتسيبني.
- يمكن عشان نصيبك عند ربنا ناس أحسن لسه هتقابلهم.
- يا ريت، المهم مبقاش لوحدي.
أمسكت كفيه بيديها وقالت وهي تتشبث بهما: عمرك ما هتبقى لوحدك، ومهما حصل أنا مش هاسيبك، حتى لو بعدت أنت أنا هادور عليك وألاقيك، مصدقني؟
- مصدقك.
ابتسما ثم سألها قلقا: طيب.. أنتِ كدا باباكِ مش زعلان منك بسببي؟
- لا يا حبيبي، بابايا دايما صوته عالي فاللي بيسمعه بيفتكر إنه بيزعق، بس هي دي طريقته، وبعدين أنا بابايا لو قعدت معاه وفهمته بالراحة كل حاجة عنك مش هيكون زعلان لا مني ولا منك.
تذكرت فخبط جبينها وقالت: يا خبر ده أنا نسيت الفطار اللي قولت لأم زينة تحضره في الجنينة، أنت مش جعان ولا إيه يا عم؟
- جعان جدا.

- طيب يلا بينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جمعتهم السيارة، بدت رقية في قمة إحباطها وهي تستند على مرفقها بينما هي جالسة بجوار محمد على الأريكة الخلفية، وبينما ضياء بدا شاردا بجوار فؤاد الذي تولى عنهما القيادة، وصلا عيادة الطبيبة ودخلت رقية برفقة ضياء بينما ظل فؤاد مع محمد بانتظارهما، ما إن دخلا حتى صافحتها رقية قائلة: صباح الخير يا دكتور هاجر.

- هه أخبارنا إيه الأسبوع ده؟

بدا واضحا من عبوسها أنها محملة بأسبوع ثقيل، كانت بانتظار فرصة لتبوح بثقله فقالت: والله يا دكتورة احنا بدأنا بداية كويسة جدا، اتعشمت إن محمد هيتحسن خصوصا إنه دايما نفسيته بتكون أهدا لما بنكون في بيت ضياء، هو بيحب مامت ضياء وباباه، وفي بيتهم باحسه مبسوط، معايا برضو لما روحنا كان بدأ يبقى أهدا، مش أحسن حاجة.. في النوم والأكل بس كنا بدأنا نتحسن، لحد ما حصل موقف حسيته هدم كل اللي اتعمل، مكالمة والدي، حضرتك طبعا فاهمة نظرة الناس وللأسف والدي ووالدتي مش عارفين عن محمد فزعق معايا لما طلبت منه أكفل محمد وقال محمد يمشي من بيتنا، المهم إنه طلب من ضياء إنه يقعد معاهم، فأنا خايفة جدا، أنا مش عايزة محمد يزعل مني، ومش عايزة أقصر مع محمد.

شعرت أن دموع الضعف ستغلبها فتماسكت ثم تابعت بضعف: أنا محبطة جدا.

شعر ضياء بيأسها فأردف ليوضح للطبيبة: احنا مشينا في موضوع التقديم على استثناءات اللجنة العليا من ناحية أسرتي ومن ناحية رقية، المشكلة إن ده نتيجته مش مضمونة واحنا قبل محمد خايفين، حضرتك مدركة تخلي تالت ممكن يعمل إيه في محمد؟

تنهد ثم تابع: احنا عن نفسنا مستعدين نعمل أي حاجة بس منعرضش محمد للموقف ده، وعندنا أمل في موضوع الاستثناءات ده.

أكملت رقية من بعده: وبالنسبالي لو الورق اتقبل بإذن الله هاحاول مع والدي لحد ما أقنعه، وإن شاء الله يوافق.

- إن شاء الله.

قالت الطبيبة ثم أردفت: هو واضح إن الأسبوع ده كان صعب، بس ده المتوقع؛ طريق تعديل سلوك الأطفال مش مفروش بالورد، ده مجهود ومثابرة وتعب، والطبيعي جدا إننا طول ما احنا ماشيين نتقدم خطوات لقدام ونتراجع خطوة أو اتنين وبعدين نتقدم تاني، طريق التغيير مش تصاعدي، دايما فيه نزول وطلوع.

- أنا بقيت خايفة أتفاءل.

- لا، تفاءلي بس لازم صبر، محمد زي أي طفل محتاج رعاية وحب، له ظروف مختلفة وصعبة هتخلينا نتعب معاه، لكن نتيجة التعب ده لما تبقى تحسن في حياته وثقة بنفسه أنتم هتكونوا أول ناس فرحانة بإنجازه ده.

- مش عارفة والله يا دكتورة.

- بصي يا أستاذة رقية أنا أول نصيحة بأنصحها لأم كافلة، إنها توازن نظرتها للأمر، يعني متحبطتش وتقول الولد مضطرب وصعب يتغير وإحباط بعد إحباط تدخل في"Post adoption depression"، ولا تفاؤل وظن إنها هتجيب طفل تلاعبه ويفرحها وتدلعه من غير تقويم، طالما

قررتوا قرار الكفالة لازم تستوعبوا إنها مسئولية وسجلي يا رقية، سجلي لنفسك اللحظات المميزة وخليها قصادك في اللحظات الصعبة وده هيوازن ده.
تنحنح ضياء وسألها: طيب فيه مشكلة إن محمد يكون معايا كام يوم؟ هل ده غلط؟
- لا مش غلط، كزيارة قرايب وناس في حياته بس آجلا أم عاجلا، محمد محتاج وضع مستقر، مكان ثابت مش عشم ببيت، وبعد العشم ده يلاقي البيت سراب.
تبادلا النظرات بينهما وقد أثقلهما عجزهما من توفير بيت راسخ لمحمد، تابعت الطبيبة مشجعة: تفاءلوا، وطالما نيتكم مساعدة محمد أكيد الأمور هتتحسن، خلونا نستنى نتيجة اللجنة العليا أعتقد هي هتنعقد خلال شهر.
- أيوة.
- تمام هنكون قطعنا مع محمد عدد جلسات أكيد هيساعدنا بإذن الله.
- تمام يا دكتورة
قالها ضياء ثم سألها: أنا هاجيب لحضرتك محمد بس هل حضرتك هتقابليه لوحده ولا واحنا معاه؟
- أفضل المرة دي كلنا مع بعض ونسمع محمد قد ما نقدر، لأن المهم دلوقتي هي ثقة محمد فينا كلنا، تمام؟
- تمام.
خرج ضياء ونادى محمدا فدخل برفقة فؤاد، فنادت الطبيبة محمدا مبتسمة وقالت: تعالَ يا محمد.
وقف قبالتها فمدت يدها تصافحه وسألته: عامل إيه؟
- الحمد لله كويس.
عاد لضياء فأجلسه على قدمه فتابعت الطبيبة: أنت عارف طنط رقية وأونكل ضياء وروني رسوماتك.
أومأ رأسه متحفظا ولم يبتسم، بدا واضحا قلقه وهو يخشى قول ردوده، فتابعت الطبيبة: حلوة قوي يا محمد، قل لي بقى أنت نفسك تطلع إيه لما تكبر؟
بدت الحيرة على ملامحه، ربما بحياته لم يُسأل عما يريده ويتمناه إلا هذه المرة، فكر ولم يدرك ما ينبغي عليه قوله فقال بعد فراغ صبره: مش عارف، أي حاجة.
- نفسك تكون رسام مثلا؟
- تؤ.
- ليه؟
- عشان الرسم .....
فكر ثم قال: تضييع وقت.
- مين قالك كدا؟
زاغت عيناه وكأنه يحاول ألا يدمع، ثم قال: بابا.
كانت أول مرة يسمعون فيها كلمة «بابا» من فمه، لدرجة أنهم كادوا يظنون وفاته، لولا أن جد محمد أخبرهم أنه لا يزال على قيد الحياة، وحين قال «بابا» ولو على سبيل الاضطرار.
استكملت الطبيبة أسئلتها: طيب أنت بتحب الرسم؟
- أيوة جدا.
- وإيه كمان غير الرسم؟

- الكورة.. باحب ألعب كورة.
- بتلعب في النادي؟
- لا، كان نفسي قوي أروح النادي زي معاذ وأشترك في الفريق بتاعه ويبقى عندي لبس الفريق بتاعه بس بابا قالي مش هينفع.
- مين معاذ؟
- ابن عمي.
- كان صاحبك؟
- لا، مكنش بيحبني.
- ليه؟
بهت وجهه وكأن الإجابة أعادته لمواقف مربكة شتتت عقله، ترك السؤال معلقا بالفراغ دون إجابة فاستدركت الطبيبة وسألته: أنت أهلاوي ولا زملكاوي صحيح؟
- أهلاوى.
- عارف.. أنا كمان أهلاوية.
أومأ رأسه وابتسامة خفيفة تشق ثغره، فقالت الطبيبة: أنا مبسوطة قوي يا محمد إن أنا اتعرفت عليك.
قالتها ومدت له يدها ببونبون فأخذه وابتسم فقالت: هتيجي تاني، والمرة الجاية عايزين نرسم سوا إيه رأيك؟ أستناك؟
مبتسما أجابها: ماشي.
ابتسمت له رقية وقبلت خده وقالت: أحلى محمد والله.
اتسعت ابتسامته فقال فؤاد: تعالى احنا نسبقهم يا محمد.
خرج برفقة فؤاد فأمسكت الطبيبة رسومات محمد وقد طبعها ضياء كصور وقالت محللة: خايف ومتفائل.
نظرت لآخر رسمة؛ كانت الشمس فيها تتوسط غيمتين وأسفلها يقف محمد بين رقية وضياء متشابكي الأيادي، بينما البيت ذو الأبواب والنوافذ المغلقة يجاورهم.. نظرت جيدا ثم قالت: بالنسبة لرسم الغيوم والسحاب فده دليل على القلق والخوف والتوتر ونقص الرعاية والحب والحنان، أما الشمس فدي بتدل على تفاؤله وحلمه بحياة ساطعة وجميلة، وجود الشمس وسط الغيوم تأكيد على خوفه من التفاؤل أو خوفه إنه يرجع الدار مرة تانية، أو إن اللي جاي من حياته ميكونش زي ما بيتمنى، نيجي لوجوده بينكم وهو مبتسم وأنتم مبتسمين ده معناه إنه بيتمنى إن دي تبقى حياته على طول وبيتمنى إيديكم تفضل في إيده وإنه يفضل وسط أسرة محتوياه ومش عايز يسيبكم أبدا.
بدا التأثر على رقية فابتسمت ابتسامتها بلمعة عينيها.. بدمعة، بينما ضياء قال: كملي يا دكتورة
- البيت بأبوابه وشبابيكه المقفولة معناه إنه انطوائي ومش متفاعل اجتماعيا وقافل على نفسه وصعب يكون صداقات بسهولة، عموما الرسم كله معبر، معناه إنه عنده حلم كبير جدا بالاستقرار والبيت والأسرة وإنكم متبعدوش عنه، في نفس الوقت خوف نتيجة متلازمة التخلي وخوف من إنكم تتخلوا عنه.
أنهت تحليل رسمته فنظرا لها ضياء ورقية،وسألت رقية: إيه كده الخطوات الجاية يا دكتورة؟
- أول حاجة أنا شايفة إنكم محتاجين تكونوا عارفين عن محمد وعن حياته السابقة، أعتقد في معلومات كتير عنه وعن علاقته بأسرته مش واضحة، اتكلموا مع محمد وسيبوه يحكيلكم، محمد أكيد

جواه كتير وكل ده أدى لتراكمات خوف وقلق، غير إحساسه بالتخلي التاني، كل ده محتاجين نسيب محمد يوصفه ويحكي عنه ومنه هنحدد نقاط الضعف والقوة في شخصيته ونشتغل على تحسين ثقته بنفسه.
أنهت كلامها، ثم وجهت كلامها لرقية: الفترة الجاية هاكون معاكي على الواتس آب لأي استفسار أو سؤال، إن شاء الله ربنا يطمنا على محمد.
- إن شاء الله يا دكتورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لأول مرة منذ يوم الحادثة تودعه وترحل لبيتها وحيدة، رافقها ضياء لإيصالها بينما استأذنهما فؤاد للنوم، ساعدت ماجدة محمد ليبدل ملابسه وتركته أمام التلفاز وذهبت للمطبخ، وجدته بعد أقل من دقيقة يجلس على المقعد الموضوع بالمطبخ بجوار منضدة صغيرة اعتادت تجلس عليهما وهي تعد طعامها، رآها تجهز له كوب لبن وقد حلته بملعقة عسل، ثم جاورته بقطع معمول التمر، ثم أعدت لنفسها كوب شاي بلبن ووضعتهما على صينية ثم سألته: نتفرج على التلفزيون؟
- لا، نقعد في البلكونة زي ما بنقعد نتكلم، ينفع؟
- آه طبعا ينفع، تعالَ.
حملت الصينية ووضعتها على المنضدة الخوص فسألها: هتوريني بقية ألبومات الصور؟
- احنا آخر مرة كنا شايفين أنهي ألبوم؟
- شوفنا اللي كان لونه أبيض في أزرق.
- طيب روح هاتهم من المكتبة اللي في وش التليفزيون.
ذهب باتجاه المكتبة وجلب الألبومات وعاد ليجلس على الكرسي الخوص المقابل لها، فتح الألبوم الذي أشارت له ماجدة وقالت: ده آخر واحد اتفرجنا عليه، صح؟
- أيوة هو، ده اللي كانت فيه صور أونكل سالم وطنط فاتن بابا وماما أونكل ضياء صح؟
- أيوة هو.
أمسكت طرف الألبوم وأمسك هو الطرف الآخر وأشارت لصورة كانت تجلس فيها فاتن على مقعد وتحمل ضياء على يديها وسالم يقف خلفها ويبتسمان ثم قالت: الصورة دي اتصوروها مع ضياء بعد ولادته بأسبوع.
تأملها باهتمام ثم سألها: أونكل ضياء شاف الصور دي؟
- آه طبعا.
- يعني حضرتك مكونتيش بتزعقيله لما يسأل على مامته وباباه؟
- لا طبعا، أنا كنت باخليه يكلمهم وكل صوره معاهم خليناها في مكانها في كل الألبومات.
- عارفة يا تيتة، أنا ماما مكنتش بترضى تقولي حاجة على بابايا ومامتي، كانت بتزعقلي وتقولي متسألش عنهم ولا تجيب سيرتهم.
تنهد حزينا ثم تابع: ودايما تيتة زوزو وجدو محمد كانوا بيقولولي إني ابن أبالسة، وإن أهلي ناس مش كويسين، تفتكري هم فعلا كدا؟
فتحت ذراعيها للصغير، فترك مقعده وحضنها فضمته وأجلسته بحجرها وقالت: بص يا حبيبي أنا دايما كنت أقول لضياء طالما إننا مش عارفين ظروف أهله إيه، بلاش نفكر في الوحش، مش عشانهم هما؛ لا عشانا احنا، احنا لما نقول لنفسنا دول بيكرهونا ومش بيحبونا ومش عايزينا، احنا هنتعب

ونزعل ونضايق، إنما لو فكرت إنهم جايز حصلهم ظرف منعهم يبقوا معاك وإنهم أكيد كان هيفرحهم يكونوا معاك، أنت اللي هترتاح يا محمد.
بدا وكأنه يفكر بكلامها فتابعت: أقولك حاجة كمان، ادعيلهم يا محمد، مش أنت بتصلي؟
- أيوة باصلي.
- خلاص وأنت بتصلي ادعيلهم، ومتفكرش في حاجة وحشة، ربنا بيعوض يا محمد، زي ما قولتلك، أونكل ضياء عاش معانا ومن وهو عنده سبع سنين يعني تقريبا كان قدك كده، عارف أول ما جه كان زعلان ومتضايق، بعدها اتعود علينا واحنا اتعودنا عليه وكان مبسوط، يووووه فكرتني.
أمسكت ألبوم صور وفتحته، نظر لصور الشوارع والبيوت فقالت: اهو ضياء بقى كان بيحب جده أبو جدك فؤاد، كانوا ينزلوا سوا يصوروا صور كتير ويروح معاه الاستوديو يحمضوها
- يحمضوها؟!
كلاهما ضحك فقالت: كان الصور بتتعمل كده، زي الطباعة كده، يعني تبقى صورة في إيدك.
ثم أشارت لصور بعينها وقالت: أهم دول تصوير ضياء.
- حلوين قوي.
أمسكت بكوب اللبن ومنحته إياه فتناوله بينما هي ربتت على كتفه وعند انتهائه عاد ليجلس على كرسيه عندها علقت: طيب أنت حكيتلي على تيتة زوزو، إنما محكتليش خالص على تيتة منيرة.
- بصي، تيتة منيرة وموني كانوا عايشين هنا في القاهرة، كنا بنيجي نقعد معاهم لما بابا يسافر، ولما بابا يرجع نرجع على اسكندرية، احنا أصلا كنا عايشين هناك.
- موني دي أمنية خالتك اللي في فنون جميلة؟
- أيوة، هي اللي خلتني أحب الرسم.
ربتت على كتفه وابتسمت فابتسم فمنحته قطعة معمول فأكلها، عندها سمعا صوت مفتاح ضياء وهو يفتح جاءهما صوته وهو يقول: سلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- منور بيتنا يا محمد.
- شكرا.
اقترب منهما، قبّل خد ماجدة وأكل قطعة معمول ثم نظر للألبومات وسأل: كنتم بتتفرجوا على إيه؟
- كنا بنشوف الصور اللي أنت صورتها وأنت صغير، حلوين قوي على فكرة.
تركت ماجدة مكانها لضياء لتعد له شايا بلبن فجلس بمكانها قبالة محمد فطالعه محمد وسأله: هو ينفع تعلمني التصوير؟
استغرب سؤاله وابتسم ثم رد: آه طبعا ينفع.
تهللت أساريره بسعادة ورد: شكرا يا أونكل ضياء.
- يا عيون أونكل ضياء.
جاءته ماجدة بشايه وسألتهما إن كانا يريدان شيئا فلما كانت إجابتهما لا، قبلت محمد على خده وودعتهما واتجهت للنوم، وبعدما انتهى ضياء من شايه تمم على غلق النوافذ والأضواء واتجه مع محمد لغرفته، جمعهما سريره وتمددا متجاورين، أمسك ضياء هاتفه وضم محمد لصدره وقال وهما يتفقدان بعض مقاطع فيديو: ده تصويري برضو يا محمد.
- أنت بتصور إعلانات بس؟

- ساعات باصور أفلام بس ماشتغلتش في أفلام طويلة، أفلام قصيرة ووثائقية بس.
- مبسوط بالشغل ده؟
- جدا، أنا اشتغلت أكتر حاجة كنت بحبها.
- تيتة ماجدة قالتلي إن جدو اللي علمك.
اعتدل وقال: يااااه يا محمد فكرتني بجدو محمود.
- أونكل ضياء ممكن أسألك على حاجة؟
بدا وجهه مضطربا وهو يسأل، فانتبه له ضياء وقال: آه طبعا اسأل.
مترددا بدا من نبرة صوته وهو يسأل: هو أنت كنت ممكن تقول لحد إن جدو فؤاد وتيتة ماجدة مش باباك ومامتك من غير ما تكون خايف أو مكسوف؟
لم يدهشه معرفة محمد، بل اندهش حين أدرك أن فؤاد أو ماجدة أو كليهما سرد القصة لمحمد ليقف أمامها كمثال يشبهه، تنهد واحتار لدقيقة فيما يقول ثم قرر ألا يزيف ما مضى فقال: بصراحة، قبل ما أفهم كنت باخاف وباتكسف أقول إن بابا وماما سابوني، بس لما فهمت إن دي حاجة المفروض لا تضايقني ولا تحرجني، بقيت أقول عادي جدا، وحاليا أنا فخور بيهم، إنهم ربوني ومتخلوش عني.
- إيه اللي فهمته؟
عادا لجلستهما متمددين، حوط كتفيه بذراعه وقال: فهمت إن مش كل البيوت زي بعضها، فيه بيت فيه أم وولادها بس.. وده اللي ربنا قدره ليهم، وبيت فيه أب وولاده بس، وبيت فيه أم وأب بس ملوش طعم، وبيت فيه أب وأم كويسين جدا مع ولادهم، وفي وسط كل البيوت دي ممكن جدا يكون فيه بيت فيه زوج وزوجة وطفل قرروا يكونوا أم وأب وابن، وكل دي بيوت مختلفة عشان احنا ربنا خلقنا مختلفين بشر وبيوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى الصباح ظلت تتقلب ترجو النوم ولا يأتها حتى علا أذان الفجر، عندها قامت وفكرت في العمل على فيلمها أو شغل وقتها بأي شيء. أعدت كوب قهوة وعادت لغرفتها وجلست أمام حاسوبها لكنها فقدت حماسها، فأدارت كرسيها ليكون في مواجهة غرفتها وأولت ظهرها لمكتبها وظلت تتأمل جدرانها التي افتقدت محمدا، فابتسمت.. رغم علمها برفض والدها إلا أنها لا تزال مصرة على محاولات إقناعه، تذكرها تلك الأيام بقرارها لتعمل كمخرجة وكيف قُوبل بالرفض، تعرف أنها ليست أفضل من يحارب لكنها دوما أفضل من يحاول. تنهدت على أمل أن تربح موافقة أخرى بكفالة محمد كتلك التي ربحتها على مضض من والدها كي تُبقي محمد معها لحين انتهاء -إحدى الأسر- على حد وصفها من إتمام أوراق كفالته دون أن تخبره أن لها ضمن المحاولات محاولة.
تنهدت ورشفت قهوتها وحاولت العمل، أعادت كتابة المسودة ثم كتبت storyboard مبدئي، ثم بدأت في تصور المشهد وعندما انتهت كانت الساعة قرابة العاشرة، فتحت حاسوبها وموقع فيس بوك فوجدت إشعارا برسالة ففتحتها ووجدت:
«مساء النور، معاكِ أدمن صفحة الاحتضان في مصر.. يشرفنا التواصل مع حضرتك في أي وقت يا أستاذة رقية»
متروك بعدها رقم هاتف للتواصل، خفق قلبها بقوة وقد غلبتها السعادة، فأمسكت هاتفها واتصلت فجاءها صوت سيدة فشرحت لها فكرة فيلمها باختصار فعلقت السيدة بعدما انتهت رقية من شرحها:

أنا هاوصلك بأستاذة يمنى دحروج، ابعتيلها واتس آب واتكلموا، بشكل مبدئي الفكرة ممتازة ومفيش أي مشكلة نتعاون بإذن الله فيها وربنا يوفقك.
- ألف شكر.
وصلها الرقم عبر الماسنجر فقامت بتسجيله ثم تواصلت مع الرقم عبر واتس آب فكتبت التصور المبدئي للفيلم بإيجاز.
"سلام عليكم أستاذة يمنى، أنا رقية كامل..
مخرجة وكنت حابة أعمل فيلم عن كفالة الأسر للأطفال من دور الرعاية،
وأتكلم عن الاحتضان..
بس هنتكلم من خلال سلبيات وإيجابيات الموضوع
خصوصا نقطة التخلي عن الأطفال بعد الكفالة..
فلو فيه إمكانية عند حضرتك تساعدينا من تجربة المبادرة،
إننا نقدم للناس الموضوع
من رؤية أشمل أكون شاكرة."
«صباح الخير يا أستاذة رقية
اتشرفت بمعرفتك
ومرحبة جدا بالفكرة
خصوصا الكلام عن نقطة التخلي
حقيقي الموضوع ده مهم جدا..
بجد فرحتيني كنت خايفة حضرتك ترفضي..
لا خالص بالعكس..
احنا دايما بنقول في المبادرة مش مهم خالص الدور تفضى..
المهم إن الطفل يكون مع أسرة واعية وعارفة معنى المسئولية
طيب ممتاز جدا
أنا ممكن أبعت لحضرتك رؤيتي وحضرتك
تقوليلي مين ممكن يتواجد معانا في الفيلم
سواء من القائمين على المبادرة
أو تجارب الأسر
جميل جدا وأنا بانتظارك، ابعتيلي رؤيتك عن الفيلم
ونتناقش فيها ونشوف بأمر الله خطواتنا الجاية بعدها
أسعدتيني جدا يا أستاذة يمنى
أنا الأسعد، بانتظارك
غير مصدقة وقفت وهتفت «yes» وكتبت في ورقة برتقالية وضعتها فوق سبورتها
«الاحتضان في مصر»
وثبتت الورقة بدبوس أخضر ثم نظرت لسبورتها فوجدت
«بحلم على قد ما معايا»

وقد حاوطتها الأوراق من كل ناحية، رسومات محمد، أفكار ضياء، والأسئلة التي كانت قد سبقت ودونتها عن الكفالة، زادت ابتسامتها وقد شعرت أن ما معها بات الدنيا وما عليها.
وصلتها رسالة صوتية من ضياء، فتحتها فوجدت صوت محمد يقول:
صباح الخير يا طنط رقية.
أنتِ وحشتيني قوي.
ينفع تيجي النهاردة تقضي اليوم معانا؟
ثم ظهر صوت ضياء بآخر التسجيل وهو يقول:
قولي أيوة يا طنط رقية.
وتعالي بسرعة هنعملك محشي وملوخية.
ضحكت ثم سجلت.
أنت كمان يا محمد وحشتني قوي.
وطالما فيها محشي من إيدين طنط ماجدة.
مش محتاجة سؤال وقول لأونكل ضياء طنط رقية.
عندها ليك أخبار حلوة عن الفيلم.
وضعت هاتفها على مكتبها، وقررت أن تتجهز، بينما أم زينة كانت قد أعدت لها الفطور كما تعودت بغرفة الـliving، بدلت ملابسها فاختارت الليموني والأزرق ليرافقها ثم اتجهت لموضع الفطور وجلست أمام التلفاز تتناوله، سمعت أزيزا يشبه صوت هاتف مكتوم فظنت أنه هاتفها، لكن قرب مصدر الصوت جعلها تبحث في محيطها، حتى ظهر لها «تاب» محمد، بعدما رفعت عنه الوسائد التي تكومت فوقه، رأت ذلك الرقم الذي استغربته مسبقا اتصل، وعددا كبيرا من المكالمات الفائتة..
وقبل أن تفكر في جلب هاتفها لتبحث عن الرقم، اهتز التاب بيدها وقد علا رنينه فضغطت علامة الإجابة وانتظرت تسمع صوت مجيبها...
- ألو ألو محمد ألو يا محمد، ممكن يا حبيبي ترد عليا؟
- ألو.
قالت رقية مضطربة ثم تابعت: مين حضرتك؟ مين معايا؟
- ده رقم ابني كلمني منه.
شعرت رقية برجفة ما إن ظنت أن المكالمة ليست بالخطأ لكنها كذبت حالها وقالت: مين حضرتك؟
- أنا مدام سمية طاهر مامت محمد!
علا صوت القطار.. ثم ظهر بعدها قطار يسير على قضبانه بطريق طويل حتى وصل إلى لافتة بيضاء كتب عليها «سوهاج»، ثم ظهرت بعدها امرأة تتوسط الشاشة تقول:
اسمي حنان..
أنا أم كافلة لطفلتين..
احتضنت رحمة، وبعد ما رحمة بنتي قالتلي يا ماما أنا عايزة أخت
ربنا قدرلي واحتضنت مريم.
أنا أول حاجة عرفتها عن الاحتضان كان من والدي لما كنا صغيرين، كان له صاحب أخد طفل ورباه بس كتبه على اسمه فجه أبويا فرقلنا بين التبني والكفالة؛
قالنا التبني حرام والكفالة حلال وشرحهالنا.

أخدت القرار بسبب موت والدي.. كان ده الدافع..
الفكرة بدأت بعد خمس سنين جواز، عرفت إن ربنا ما أراديش الخلفة فقولت أحتضن طفلة. جوزي رفض، فقعدت بعدها حوالي سبع سنين تاني لحد ما حصلت وفاة والدي فأنا في لحظتها أخدت القرار لأني شوفت بعيني مع مرض والدي احتياجه ليا واحتياجه لولاده جنبه..
فقولت أنا مش عايزة أكون لوحدي..
أنا هاجيب طفل أشيله وهو صغير وهو هيشيلني وأنا كبيرة..
واحتضنت بعد ١٣ سنة جواز..
حاليا أنا كافلة من أكتر من عشر سنين
وقتها مكنش لسه فيه كلام عن الرضاعة
فطبعا قررت أكفل بنت
لأن لو ولد لما يكبر مش هينفع.. فتوكلت على الله واستخرت إني هاروح آخد بنت
والحقيقة أنا شوفتها في رؤية..
شوفت إني باخد بنت ملفوفة في لفة بيضا
واللي بيدهالي بيقولي خديها وقولي للناس إن دي بنتك
فأنا في الرؤية دي رديت إني مش هاكذب فاتقالي لا بس دي بنتك
وقبل ما أروح أشوف «رحمة» بيوم واحد
حلمت بيها بالاسم
وروحت الدار تاني يوم والناس اللي هناك فاكرين إني جاية آخد ولد
قولتلهم أنا عايزة بنت قالولي مفيش غير رحمة
قولت دي اللي ربنا بعتهالي
قالولي احنا صلينا الصبح ودعينا ربنا يبعتلها أسرة وكنت أنا بفضل الله..
طبعا هم قالولي لو عايزة تكشفيلها وتطمني إنها كويسة قبل ما تستقري عليها
قولتلهم لا.. أنا دي بنتي وأنا اللي هاربيها وسألتهم على الإجراءات
قالولي الأوراق والإجراءات هتاخد من شهر لشهرين
أنا قلت: كل ده؟
قالولي يا ستي مسموح تجيلها إن شاء الله كل يوم
أخدت ورقة بالأوراق المطلوبة وأقسم بالله في يوم
يوم واحد كل إجراءات رحمة خلصت..
تاني يوم نزلت عملت كل الأوراق حتى الفيش والتشبيه
ده اتعمل في يومها بس استلمته تاني يوم
يعني كانت ميسرة جدا جدا..
رغم إن في الوقت ده كان في زحمة على الشهادة الصحية عشان موسم الحج
الكلام ده تحديدا شهر ٥ - ٢٠١١
يعني كل أوراق رحمة واستلامي ليها أخد بالظبط ٧ أيام وكانت في بيتي..
أنا شوفت رحمة الاتنين، واستلمتها الأحد اللي بعده
هو مفيش صعوبات في قصة رحمة غير إنها لها ظروف خاصة كذوي احتياجات

فأنا باحمد ربنا إنه بعتهالي
لأن هي محتاجالي وهي عندي بالدنيا وما فيها والله
أنا مكونتش ناوية تاني لحد ما رحمة قالتلي يا ماما أنا عايزة أخت ألعب معاها
واتحايلت عليا فبدأت أفكر
وبرضو لقيت معارضة من المحيطين بيا خصوصا إنهم دايما يتكلموا إن رحمة تعباكِ
وظروف رحمة.. أقولهم محدش له دعوة رحمة دي تاج على رأسي والله وأنا كفيلة بإني أقطع لسان
أي حد يقول في حق بنتي أي حاجة
واستخرت تاني ولقيت رحمة بتقولي يا ماما أنا في بنت دايما بحلم بيها بتلعب معايا فأخدت رحمة
وروحنا الدار وهي اللي اختارت مريم قالتلي هي دي يا ماما
ورتها أطفال كتير
قولتلها نجيب نونو تلعبي معاه يا رحمة قالتلي هي دي يا ماما
فروحت واختارتها
كانت الرحلة مع مريم مختلفة خالص عن رحمة
مريم أنا أخدتها من الدار كبيرة
أول مشكلة قابلتني كانت في مشيتها
فأنا افتكرت البنت فيها حاجة ولقيت معارضة العيلة هتقوم من حواليا تاني
فقولت لزوجي خلاص لو دي اختيارات ربنا لينا حرام نكسر بخاطر البنت
ونرجعها ليه..
بس الحمد لله روحت بيها للدكتور قالي البنت كويسة
إنما للأسف عندها لين عظام..
نتيجة طبعا لقلة التغذية والأطفال مش بيشوفوا الشمس..
مريم حكيتلي كتير عن الدار، يعني هنا في الصعيد الوضع صعب قوي
ضرب والأطفال بتتنادى بالشتيمة ومفيش مراعاة لمشاعرهم
ولا اهتمام بنضافتهم للأسف
أول ما مريم جت، أخدت وقت عقبال ما بطلت لما نناديها تغطي وشها بإيدها فاكرانا هنضربها..
وأنا باسرحلها شعرها تحط إيدها على راسها خايفة تضرب على دماغها
يعني قعدت ١٥ أو عشرين يوم عقبال ما بطلت تحط إيدها من تأثير الضرب عليها..
تقدر تقول الضرب كان تسليتهم والله
يعني عايزها تنام تضربها
عايزها تاكل تضربها
وكل مشرفة بتضرب عيالها
والرضع ممكن يتسابوا طول اليوم بيعيطوا
محدش بيغيرلهم ولا بيأكلهم
فحالهم والله في الدور خصوصا الصعيد هنا يقطع القلب.
بعد تجربتي مع رحمة ومريم
بقى نفسي والله لو أقدر أكفل كل ولاد سوهاج والله

الولاد دول قاطعين فيا جدا
مهما كان الطفل ساكت لكن من جواه قلبه مكسور
يكفي أنه يفضل في دار مش لاقي فيه حب ومحروم من كلمة ماما..
ومحروم يشوف الشمس.
حنان محمد
مدرسة خط عربي
بإحدى المدارس الخاصة
وأم كافلة لرحمة ومريم
غابت الصورة عن حنان وجاء صوت آخر بدأ يتحدث، بينما الصورة ثبتت لثوان على مريم ورحمة، ثم ظهرت امرأة ترتدي الأسود والأصفر توسطت صورتها الشاشة ثم قالت:
لازم نعرف إن أطفالنا معندهمش ثقافة الشكوى من الألم النفسي،
بيبقى مش عارف يعبر فبيظهر في سلوكياته..
متلازمة التخلي..
هي حالة من الحالات النفسية والسلوكية،
بتحصل للطفل في حال فقد أحد والديه،
سواء بالانفصال أو بالوفاة أو هجر أحد الوالدين للأسرة،
وبتكون طبعا في أشد مراحلها مع أطفال دور الرعاية نتيجة تخلي أهلهم عنهم.
امتى نشخص طفل بمتلازمة التخلي؟
الموضوع بيعتمد على درجة انتباه ووعي القائمين على رعاية الطفل..
طبعا هو مبيعرفش يقول أنا تعبان أو مخنوق
فبيظهر عليه معاناة بتكون سلوكية وغير جسمانية زي؛
اضطرابات في النوم واضطرابات أكل..
فقدان القدرة على التواصل مع اللي حواليه..
انطواء - بكاء مستمر شعور بعدم الراحة - عنده تباطؤ في الاستقلال الحركي مقارنة بالطفل الطبيعي..
بتختلف الأعراض وبتكون أشد كل ما الطفل يكبر..
وبتكون أصعبها في مرحلة المراهقة..
فقدان الأمن - خوف - اكتئاب - سرعة الغضب والحزن..
وطبعا في حال عدم تعديل الطفل سلوكيا ونفسيا الأمر بيكون أسوأ وأسوأ.
هاجر عبد العال
استشاري نفسي وتربوي
وأحد مسئولي الدعم النفسي بمؤسسة الاحتضان بمصر
عادت «راندا عادل» تتوسط الشاشة وقالت:
مينفعش أبدا تكون قراراتنا بلا مسئولية..
هنجيب طفل فمشاكلنا تتحل..
طيب مرتاحناش والطفل ده عمل مشاكل خلاص نرجعه..

دي كده قرارات خالية تماما من المسئولية، لو ده ابنك البيولوجي هتتصرف ازاي؟ في لحظة التخلي الطفل بيوصله يقين إنه مش متساوي مع ابن الأسرة البيولوجي..
في تقبل الأسرة لاختلافه وأخطائه ومشاكله..
أنت في حياتك يوم ما ابنك يعمل كارثة،
هتفكر في تقويم سلوكه،
مش هافكر غير في ازاي أحل مشاكله، مش إن هو المشكلة والحل إنه يمشي.
راندا عادل
المدير التخطيطي المؤسسي
والجودة وإدارة الأزمات
لمؤسسة الاحتضان في مصر
عادت مريم وتوسطت الصورة وقالت:
هو ألف باء حل مشاكل؛
إننا مننتظرش وقوعه، إنما من البداية ومن قبل ما الطفل يدخل حياتنا نفكر..
أنا ازاي هاعدي الفترة الانتقالية مع ابني؟
ازاي هاقول لابني الحقيقة؟
هاقوله إيه عن أمه البيولوجية؟
لو أنا مرتبة كل ده في دماغي ده مش معناه إني هتفادى المشاكل،
بس هاقدر أتصرف معاها..
هندخل الفترة الانتقالية واحنا عارفين إنها ممكن تمتد من شهر لغاية سنة
هتختلف من طفل لطفل حسب سنه، شخصيته..
فترة ما قبل احتضاني له
وده هيساعدنا؛
في زيادة تجاوب الطفل معانا..
زيادة تقوية علاقتنا به..
والأهم بقى منديش لنفسنا رسايل سلبية..
بالعكس قولي لنفسك بإذن الله
هتكوني أم ناجحة والزوج هتكون أب مسئول وندعم بعض..
وبعدها نبدأ نحكي للطفل قصص بشكل متدرج نساعده يفهم ولازم الحقيقة تتدرج، ولازم نجاوب بكل صراحة على أسئلة الطفل عن أهله البيولوجيين..
لأنه الحقيقة هي أقصر طرق كسبنا لأولادنا.
مريم الشرقاوي
أخصائي الدعم النفسي
مؤسسة الاحتضان في مصر
عادت لمياء بعدها وقالت:
ساعات ممكن أحبط لما أشوف تجارب أسر صعبة..
وإنهم رافضين يتغيروا ويساعدوا ابنهم وشايفين رجوعه الحل..

وأوقات ممكن نشتغل على حاجة عشان نوصل معاهم لنتيجة..
بس نتصدم إنها مبتكملش..
في اللحظات دي باحس إن المواقف الصعبة لها قيمة.
علمتني أعرف أتفادى نفس الأخطاء مع بنتي..
وبقينا في المؤسسة عندنا خبرة نساعد أسر ونساعد أطفال تم التخلي عنهم..
يمكن لو مكانتش المواقف المحبطة دي عدت
مكنش بقى عندنا كل الخبرات دي.
لمياء نصار
المدير الفني
لمؤسسة الاحتضان في مصر
ثم عادت هاجر وقالت:
الطفل مش مجرد جنين..
ده بيحس بكل حاجة بتدور حواليه..
فعارف مامته بتحبه ولا لا، معاه ولا هتسيبه..
يعني الطفل بيشعر بالتخلي من وهو في بطن مامته..
الطفل البيولوجي في حال فقدانه أحد الوالدين..
بيكون أكثر تعلقا بالطرف الآخر..
وهنا خليني أقول إنه الطفل اللي تم التخلي عنه هو بيكون في أمس الحاجة لأسرة، ونظرته لها بتكون أكبر من إنه بيتقدمله بيت يقعد فيه مع أب وأم..
هو بيشوفهم حياة كاملة..
فلما بناخد قرار التخلي عنه مرة أخرى، هو مش مجرد طفل راجع دار..
ده طفل اتسحبت منه الحياة..
والتدمير النفسي اللي بيعيشوه أطفال تم التخلي عنهم للمرة التانية ممكن يوصلهم للجنون..
فقبل ما تاخد طفل من دار وتكفله في بيتك لازم تكون عارف إنك بتقدم
معنى أكبر من بيت..
دي حياة كاملة..
وحلم للطفل.
هاجر عبد العال
استشاري نفسي وتربوي
وأحد مسئولي الدعم النفسي
بمؤسسة الاحتضان بمصر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(١٠)

ظلت بمكانها ساهمة وكأن مطرقة هوت على رأسها، لم يخفق قلبها لا سعادةً ولا خوفا بل توقف النبض..

- «مامته!»

قالتها ودموعها تنهمر دون استطاعة منها إيقافها، رغم يقينها أنها لم تبك بعد

- محمد كلمني من الرقم ده هو .... مش موجود ... عايزة أكلمه.

صمتت، لم يكن صمتا مستطاعا بل ذلك الذي نُحمل عليه، كُبتت وكأن لون القمع عاد، تحشرج صوتها ثم ردت: أنتِ كنتِ فين؟ أنتِ عارفة محمد عيط قد إيه؟ عارفة سأل عليكِ كام مرة؟ طيب عارفة إن جده كان هيرجعه الدار تاني؟

انفجرت في البكاء، لم تستوضح رقية لمن منهما كان صوت النحيب.

- أنا عايزة أشوفه... أنتِ مش عارفة ظروفي... أرجوكِ متحكميش عليا لو سمحتِ وأنتِ مش عارفة عني حاجة.

لم يكن لدى رقية شيئا لتقوله فسكتت، زاد رجاء سمية وبكاؤها وأنهيا المكالمة على وعد؛ «أنا راجعة آخد محمد»

لم تعد تطالع الفراغ بل غرقت فيه، حاوطها من كل جهة حتى أنها عجزت عن التفكير، وظلت بمكانها تجاهد حتى قامت وتذكرت هاتفها، عادت لغرفتها وحاولت الاتصال بالطبيبة لكن أتاها الرقم مغلقا، فقررت أن ترسل لها رسالة عبر واتس آب ولم تستطع الكتابة فسجلت: «صباح الخير يا دكتور... هو لو محمد قابل مامته دلوقتي .... ده ممكن يبقى تأثيره إيه؟»

لم تستطع استكمال رسالتها، انقطعت عند تلك النقطة ولم تصل فلم تعدها، وضعت هاتفها والتاب على سريرها وظلت تجوب غرفتها ثم دفنت وجهها بين كفيها وهمست «مامته بجد»

وحدها عجزت عن التفكير فأرجأت أي قرار لحين وصولها بيت ضياء، استقلت «أوبر» وعند وصولها أتاها من خلف الباب صوت ضياء يمزح ثم فتح لها فصدم من هيئتها، لم تدخل، ظلت بمكانها وقالت: محتاجة أتكلم معاك ضروري.

- أنتِ كويسة؟

هزت رأسها نافية فسألها قلقا: فيه إيه؟

- تعالى نتكلم تحت.

سمعت صوت محمد يسأل: هي طنط رقية لسه ماجتش؟

فاحتار ضياء فيما يقول، ثم قال وهو يفسح لها المجال لتدخل: استنيني عشر دقايق أغير هدومي وننزل.

أول ما دخلت ورآها محمد ركض عندها وفتح ذراعيه فانحنت وفتحت له ذراعيها وضمته دون أن تنطق بكلمة فقال: وحشتيني قوي.

قاومت دموع عينيها وقالت: أنت أكتر يا محمد.

- أنتِ حد زعلك؟

- لا.

أنتها ماجدة لترحب بها فقلقت من هيئتها وسألتها: مالك يا رقية؟
- مفيش حاجة.
انتهى ضياء من هندامه فخرج، شعر بتوتر محمد وقلق ماجدة فقال لرقية محاولا تخفيف الأجواء: مش محمد قاعد بيساعد تيتة ماجدة.
ثم قال لمحمد: هتأكلنا من إيدك النهاردة يا محمد.
- حاضر.
ثم نظر ثلاثتهم لرقية فقال ضياء: أنا وطنط رقية هنروح نجيب حاجات عشان الغدا ونيجي، يلا بينا يا رقية.
سبقها على السلالم وما إن وصلا الفناء حتى تجاورا، سألها عندها: في إيه بقى؟
استكملا سيرهما حتى خرجا من بيته واستجمعت هي كلامها وقالت: مامت محمد عايزة تشوفه.
وقف ورأت بملامحه الصدمة ذاتها لدرجة أنه ظل لدقيقة كاملة يحاول استيعاب ما قالته: نعم؟ مين؟ مامته اللي هي، أنهي أم؟
- سمية؛ مامته اللي كفلته.
- أفندم؟ هي كانت لسه فاكرة؟ كلمتك ازاي؟ وعرفت توصلك منين؟ جد محمد مش معاه غير رقمي أنا.
- محمد كان بيكلمها من التاب اللي كان معاه.
- ولما ابنها كان بيكلمها جالها قلب تسيبه مع ناس متعرفهمش ازاي؟ ودلوقتي عايزة إيه مش فاهم؟
- عايزة تاخد محمد.
- أنتِ بتقولي إيه يا رقية؟ ده لو آخر ناس والله ما هاقبل.
شعر بأنه ما عاد قادرا على تحمل غضبه فقال لها: تعالي نعدي على بابا في الاستوديو.
عادا لسيارته واستقلاها ومرا بفؤاد، جلسا معه بمكتبه وسردا له ما حدث، ثم علق ضياء: بعد كل اللي عملوه مع محمد جايين دلوقتي يفكروا ياخدوه؟
- اهدا يا ضياء، الأمور دي متتاخدتش كدا.
قال فؤاد ثم فكر: أنا مقدر إن الموقف صعب، خصوصا بعد ما كبر جوانا عشم إن محمد هيفضل وسطنا، بس قدر الله وما شاء فعل.
- أنتم بتتناقشوا في إيه؟ في إننا نتخلى عن محمد؟ عايزين تقبلوا إن محمد يرجع لجده اللي مش طايقه ولا أبوه اللي كان بيضربه؟ لا طبعا.
- ولو الاستثناءات اترفضت يا ضياء؟
علقت رقية وهي تبكي ثم أكملت: محمد حظه كويس إنهم مدوا في أجازة المدرسة السنة دي، لكن وبعدين لو فضل الوضع كده، محمد هيكمل معانا ازاي؟
نكس ضياء رأسه بينما رقية حاولت التماسك وتابع فؤاد بعدها: الموضوع عايز تفكير واللي يحكمنا فيه هو مصلحة محمد، احنا مفيش معانا أي أوراق تثبت علاقتنا بيه.
- العلاقات مش أوراق يا بابا.
- احنا بنتكلم وكأن محمد هيوافق يرجع مش جايز محمد يرفض
قالت رقية راجية فأجابها فؤاد: جايز آه وجايز لا، المهم نسيبه هو يقولنا عايز إيه، ده مش قرارنا احنا، ده قرار محمد، يعني لو قال عايز أرجع لمامتي احنا مفيش في إيدينا حاجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞
كانت شاردة أمام خرانة ملابسها تطالع الرف الذي اقتطعته لملابس محمد، بعينين ترقرقت بدمعة وتنهيدة وبسمة، ذلك الحيز الأخضر الذي احتل الأبيض والأسود، شعرت أن فراقه انتزاعا لروحها، وأنها لن تقوى ولكن لا مفر من الفُرقة. عادا هي ومحمد للفيلا سويا، ومنذ عودته انزوى وحده بغرفة الliving وبقيت هي بغرفتها، ضمنيا ثمة كلام كلاهما يريد قوله، لكنهما يخشيان لحظة البوح به.
ورغم خوفها قررت حسم شتاتها وتشتتها واتجهت لمحمد، كان يجلس أمام التلفاز فجلست بجواره، نظر لوجهها ثم صمت وانتظر كلامها فسألته: أنت كنت بتكلم مامتك يا محمد؟
- أيوة.
خشي أن يحزنها تصرفه فاختار ألا يكذب وقال: كلمتها مرتين.
- امتى؟
- أول ما أخدته منك، كلمتها عشان تيجي تاخدني، قالتلي اصبر شوية، أنا ... هحاول أقنع بابا ونيجي ناخدك.
دمعت عيناه ثم تابع:
-استنيتها وبعدين لما لقيت جدو جاي عرفت إنها معرفتش تعمل حاجة، أنا كلمتها عشان تقول لجدو يسيبني معاكم قالتلي مش هينفع أنا خلاص كلمت باباك وقال ممكن يوافق ترجع تعيش معانا، هي كانت بتقولي إنها هتعمل المستحيل عشان تخليه يوافق، والله هما دول بس المرتين.
مسحت دموعه وربتت على كتفه وقالت: ماما شكلها فعلا عملت المستحيل، وباباك وافق ترجع تعيش معاهم.
صدم من كلمات رقية لدرجة أنها لم تتبين مشاعره، فرح أم حزن فسألته: إيه رأيك؟
- أنتم إيه رأيكم؟
وكأن كل منهما يهاب كلمات الآخر، ظلا يتطالعان لبعضهما البعض فآلمها أن تشفق عليه من معنى الفراق ومعنى التلاقي، ولم يكن شتاتها بأقل من شتاته لكنها نحت رغبتها وقالت: أنت اللي لازم تختار يا محمد، دي حياتك وأنت اللي تقول إيه اللي يفرحك وإيه اللي يريحك.
ابتسم ملء وجهه رغم بقايا دموعه، ابتسم لشعوره أنه قد يملك حقا للراحة والفرحة والاختيار، فكرت أن تبلغه ما عندها علها تساعده فقالت: مامتك كانت عايزة تشوفك.
- هو أنا خلاص هارجع معاهم؟
- لا لسه شوية، بس هي كانت عايزة تقابلك قبل ما تولد، هي قالتلي هتولد آخر الأسبوع ده، أقولها تيجي امتى؟
- أي وقت.
- بكرة كويس؟
- بكرة كان أونكل ضياء وعدني نخرج ويعلمني التصوير عشان هو معندوش شغل بكرة.
- نخرج ولما نرجع مامتك تجيلنا على بيت أونكل ضياء.
انهمرت الدموع من عينيه ثم قال: ماشي يا طنط رقية.
أجاب وارتمي بين ذراعيها فضمته لصدرها وظلت تمسح على رأسه فسألها: أنتِ مش زعلانة مني؟
- ولا عمري هاقدر أزعل منك يا محمد.
- كلكم مش هتزعلوا مني صح؟

انزوت على شفتيها ابتسامة وقد أدركت من سؤاله اختياره فقالت: أبدا، وعاوزة أقولك حاجة، أنا فاهمة لو عايز ترجع مع مامتك، دي مامتك أكيد، أنا عايزاك بس تعرف، إن دايما في طنط رقية موجودة لو احتاجتها، وعمرها ما هتبعد عنك، دايما هاكلمك وهازورك، وأنت كمان ابقى تعالى زرني.
تشبثت بضمته لكن رنين هاتفها حين علا فرض عليها ترك ضمته، تركته أمام التلفاز وانزوت بغرفتها بينما صوت والدها علا سائلا: أخبار الولد إيه؟ هو لسه موجود؟
انفجرت في بكائها فجأة فوصل صوتها لوالدها ووالدتها فسألها والدها: الولد جراله حاجة، عملتي إيه تاني يا رقية؟
- معملتش حاجة.
هتفت وازداد بكاؤها وهي تكمل: معملتش حاجة ومش باعمل، طول عمري، ده آخري، كلام وأحلام وبس.
- في إيه؟ ما تقولينا الولد وصلتِ معاه لفين؟
سألتها والدتها فأجابت: أهله راجعين خلاص وهياخدوه.
- طيب ريحتي قلبنا يا بنتي.
ثم تابعت: على الأقل ترجعي شغلك وتشوفي حياتك بقى، ده طنط كريمان لسه مكلماني يا رقية ابنها دكتور هشام بيدور على عروسة....
قاطعتها هاتفة: يا ماما حرام عليكم بقى، هو أنتم عمركم ما حسيتوا بيا، دايما بتفكروا في اللي أنتم عايزينه وبس، أنا مش بافكر في الجواز ومش عايزة أتجوز.
- أمال عايزة إيه يا رقية؟ تجيبي عيل وأكتبهولك على اسمى؟
قالها هازئا فهتفت: مفيش فايدة، أنتم عمركم ما هتفهموني، واطمنوا.. كمل يا بابا شغلك، مش كنت مضايق من مصايب رقية؟أهي مصايب رقية خلصت.
أنهت المكالمة وزفرت، محت دموعها وألقت الهاتف على سريرها بعدها رن الهاتف مرة أخرى؛ كانت سمية، اتصلت على هاتفها بعدما طلبت من رقية رقمها بنهاية المكالمة السابقة ثم طلبت التحدث لمحمد فقامت ونادته ثم مدت يدها بهاتفها له وقالت: مامتك عايزة تكلمك يا محمد.
أضرمت النار بصدرها وخشيت أن تكون غيرة لكنها أدركت أن خوفها أمومي غريزي على طفل هو قدرها.
وارت حزنها ولكنها أبقت عينيها مسلطة على الصغير تريد استبيان كلام والدته، بينما بدا لها محمد مرتبكا من وجودها فقررت أن تتظاهر بانشغالها في ترتيب مكتبها وقد أولته ظهرها بينما هو سمع صوت والدته تسأله: أنت مكونتش بترد عليا ليه يا محمد؟ اتصلت بيك كتير قوي، كنت عايزة أقولك أخيرا بابا وافق، كنت عايزة أفرحك، أنت وحشتني قوي يا محمد.
- وأنتِ كمان وحشتيني قوي.
- عامل إيه؟ أخبارك إيه يا حبيبي؟
- كويس، أنتِ هتيجي بكرة تشوفيني؟
- بكرة مش هينفع يا محمد، بعد ما أولد هاجي أنا وبابا وناخدك تعيش معانا، أنا وأنت ومحمد الصغير.
- أنتم هتسموه محمد؟

جاءها صوته مضطربا فقالت: آه يا حبيبي.
- وأنا هايبقى عندي اسم جديد؟
- لا خالص، أنت محمد وهو محمد.
وشتان بين اثنين لن يستويا، واحد ينتظره الترحاب والآخر التخلي، والتفرقة حتى من قبل أن يرى ثانيهما الدنيا.
- متفكرش في أي حاجة، غير إننا هنتجمع، دي موني فرحانة قوي هي وتيتة منيرة.
- هما جنبك أكلمهم؟
- لا خرجوا يجيبوا حاجات للبيبي، أنت مش عايز حاجة يا محمد؟
- لا.
- طيب يا حبيبي.. مع السلامة.
أنهى المكالمة ومنح رقية هاتفها وأسرع للغرفة المجاورة، دس وجهه بوسادتها وبكى، ارتبكت رقية وهي تتابعه واعتصر قلبها الألم. أيبكي افتقادهم؟ أم فقدانه لنفسه؟ اقتربت منه ومسحت على رأسه فقال بصوت مبحوح: هيسموا البيبي محمد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نام بصعوبة بعدما سرد عليها أكبر مخاوفه؛ اسمه ليس حقا له، لم يختره بصغره.. بدله سليم لأنه أراد طفلا يحمل اسم أبيه، فلما جاءه الطفل من صلبه استكثروا على من كفلوه اسمه. عاودته الكوابيس حتى أتى صباحه وأمام فطوره فقد شهيته وعند سؤالها بكل وضوح ودون مواربة: هو أنتم ممكن تاخدوني أكيد ولا هارجع الدار؟
أرادت طمأنته لكنها ما استطاعت خشية ألا تنصفها القوانين وأوراقها، أدمى قلبها حزنه فطلبت منه تبديل ملابسه كي يرافقا ضياء ليعلمه التصوير كما وعده ثم أمسكت هاتفها واتصلت بسمية. كانت ترتب حقيبة الولادة؛ إذ تحدد موعد ولادتها بعد الغد، ظهر اسم رقية فظنته ابنها فردت: أيوة
فجاءها صوت رقية تقول: صباح الخير يا مدام سمية معلش كنت عايزة أتكلم معاكِ ضروري بخصوص محمد.
- محمد كويس أهم حاجة؟
- الحقيقة لا.
- محمد جراله إيه؟
- للأسف محمد رجعتله الكوابيس تاني.
- أفندم؟ كوابيس إيه؟ مش فاهمة، محمد تعبان ولا متعور؟
- محمد كان متابع جلسات نفسية مع دكتورة بسبب متلازمة التخلي، وكان بدأ يتقدم في العلاج لحد مكالمة حضرتك امبارح.
- إيه التخريف ده؟ تخلي إيه ودكتور نفسي إيه؟ ده ولد صغير، أنتم عملتوا غيه في الولد؟
- احنا برضو؟ هو احنا اللي قررنا الولد يسيب بيته وحياته ويرجع الدار مرة تانية؟
- كانت ظروف وعدت.
- حضرتك متأكدة إنها عدت؟ متأكدة إن معاملة بابا محمد وجده له هتبقى أحسن؟ أنا بس عايزة أفهم على أي أساس حضرتك عايزة محمد يرجع؟
- محمد ابني.

- ابنك؟! عشان كده سيبتوا كل الأسماء واختارتوا لأخوه اسمه.
- اسمعي يا أستاذة رقية مش معنى إنك راعيتي محمد شهر ولا حتى شهرين إن ده يديكي الحق تدخلي في حياته؟
- أنا اديت نفسي الحق يوم ما الطفل ده اترمى تحت عربيتي عشان العيلة اللي كان معاها مكنتش عارفة يعني إيه مسئولية.
- أنا مسمحلكيش.
- أنا مش باكلمك عشان تسمحيلي أو متسمحيش، أنا باكلمك أعرفك حاجة واحدة بس، محمد مش لوحده أنا وراه ومعاه، ولو اختار يرجع ومرتاحش مش هاسمحلكم ترجعوه دار، مش هاسمحلكم تعتبروه لعبة وقت ما تعوزوه تاخدوه ووقت لما يكون فيه بديل ترجعوه.
- بأي حق؟ واحنا عيلته، أنتِ مين أصلا؟
- أنا ولية أمره، أنا قررت أتولى مسئوليته، ومسمحش لحد يأذيه حتى لو الحد ده كانت عيلته المثبتة بالورق.
ولم تنتظر من سمية أن تنهي كلامها، أنهته هي ورافقت محمد وقابلا ضياء، كانت وجهتهما إحدى الحدائق بمدخل مدينة الرحاب وهناك وضع ضياء الكاميرا أمام وجه محمد وطلب منه أن يغمض عينه اليسرى ثم ينظر من العدسة، فعل ما قاله والتقط صورة لرقية، ثم صورة لضياء وبعدها توالت الصور لكل مكان جمعهم، ورغم ما بهم من حزن رسموا البسمة على وجوههم بعدها، ومع نهاية يومهم أكلوا «بيتزا» كأول مرة أكلوها معا،
ثم اتجهوا للاستوديو وهناك جلسوا متجاورين حول منضدة، توسط محمد جلستهم أمامها، وابتسم للصور التي قامت بتصويرها وعندها قال: هو أنا ممكن أطبعها وأحطها في ألبوم؟
- آه طبعا ممكن، احنا أصلا هنا عندنا ألبومات، هاجيبلك واحد.
ذهب وعاد جالبا ألبوم لونه أخضر ومكتوب عليه بالذهبي
"Forever"
ثم قام بطبع الصور وتراصوا ثلاثتهم حول منضدة واختاروا الصور وثبتوها بكل صفحاته حتى أعدوا الألبوم كاملا، ليوثقوا به ذكرى تيه لولاه ما وجد كل منهم نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«راحل»
الأخضر سيغادر بعيدا، أقسموا ألا يبكوا عند رحيله، وأقسموا أنها لن تكون نهاية الحكاية، للمحاولة حكايات شتى لا ترويها الأوراق ولا قوانينها، بل تحكيها الأيام وأوجاعنا. للأبوة معنى لن يكون بنطفة نتاجها طفل ولا إمضاء على عقد، الأبوة عهد، بين قلب وقلب.. والأمومة أبقى من رحم أو ورقة؛ الأمومة ميثاق بين نفس ونفس. تأملته رقية وهو جالس بالشرفة ينتظر والدته وهمست: «زي الحلم»
رأته اسم فيلمها وكأنه يصف أيامها مع صغير قررت أن تكون أمانه، ومعه أدركت أنها تملك قلبا، وتعرف الحب «مع السلامة يا محمد»
حين قالها ضياء وهو يضمه رافقها بكلمة: «شكرا»
ولم يكن شكره وحده، بل كلهم قالوا غيبا، فرأى الامتنان لوجوده بعيونهم، وعرف منهم أنه دوما سيقابل من يفخر أنه يعرفه. وقفت سيارة سليم أمام فناء بيت ضياء، وفق الموعد المتفق عليه، حمل

هو صغيره واستبقته سمية مسرعة فقال وهو لا يزال بمكانه: بالراحة شوية عشان جرح الولادة. لكنها لم تسمعه وصعدت السلالم ركضا حتى وصلت لبيت ضياء ولم تحتج طرق أبوابه؛ كان مفتوحا فنادت: يا محمد.
ركض ناحيتها وارتمى بصدرها فأمطرت وجهه بالقبل، ونكص بقية الحاضرين قسمهم، الكل بكى، تلك الفرحة التي تُحييها الدموع.
- «يلا بينا يا محمد»
- «خلاص هنروح بيتنا»
قالت سمية ثم ظهر سليم يحمل رضيعه ويقف عند باب شقتهما، حيّا أسرة ضياء ثم نظر لسمية وقال: مش يلا بينا بقى؟
ثم نظر لمحمد وقال: إزيك يا محمد، وحشتنا.
أومأ محمد رأسه دون رد، بينما ضياء قال موجها كلامه لسمية وهو يشير لحقيبة بجوارها: دي شنطة محمد فيها كل حاجته...
- احنا مش هناخد حاجة.
قطع سليم كلام ضياء ورد ثم أردف: احنا متشكرين لكل اللي عملتوه مع محمد بس مستعجلين ولازم نمشي.
أمسكت سمية يد محمد سعيدة وقالت: أنا فرحانة قوي يا حبيبي.
استوقفتها رقية قبل خروجها ومنحتها ورقة وقالت: ده رقم دكتورة هاجر اللي محمد بيتابع معها، هي طلبت إنكم تكلموها عشان تفيدكم باسم حد من إسكندرية يكمل مع محمد جلساته.
- طيب مفيش مشكلة، شكرا يا أستاذة رقية.
وضعت الورقة بحقيبتها وسحبت محمد من يده فلوح بيده وظل يلوح حتى نزل السلالم. استبقته سمية ثم نادت: يلا يا محمد. وصلوا الفناء، رأى والده يضم الرضيع الجديد وكأنه يخشى ضياعه ويسبقهم بخطواته فنظر لوالدته التي مشت بجواره وقال بعدما تذكر ألبوم الصور: أنا كنت هانسى الألبوم، ينفع أطلع أجيبه؟
جاءه صوتها متعجلا أكثر من مشيتها وقالت: مش مهم خلاص هنبقى نجيبلك غيره.
ناداها سليم: الولد بيعيط معايا يا سمية.
فأفلتت يد محمد وهرولت لتجاور سليم وتحمل صغيرها عنه، فأبطأ محمد خطواته فرآهم متجاورين، سليم وسمية ومن يتوسط الصورة محمد غيره. فاحتالت خطواته البطيئة لثبات وكأن الأرض ما عادت تحتمل خطواته فبقي بمكانه حتى نظر أمامه فلم يجد لثلاثتهم أثرا. وصلوا عند السيارة وما إن نظرت سمية حولها حتى أدركت أنها نسيت من أتت لأجله، فوضعت رضيعها بيد زوجها وعادت ناحية فناء بيت ضياء لتنادي ابنها: «يا محمد»
وقبل أن تكمل خطواتها عائدة لجلبه أدركت اختياره وقبل أن تُمنح فرصة للمعاتبة جاءها صوت زوجها مناديا، لتأتي لرضيعها وتسكته، فهو الأبدي عنده، من ذلك الصغير الذي أبقاه في بيته ونسي منح علاقتهما تسمية.
توسطت الشاشة صورة محمد وهو يقود دراجته ويضحك ملء وجهه ثم ظهر جالسا وقال مبتسما:
أنا بحلم أبقى ضابط
بس لو منفعش

نفسي أبقى مخرج
زي مامتي
ثم عادت الصورة للضيافة في دار الرعاية وقد توسط علي الشاشة وقال:
أنا لسه بحلم ألاقي عيلة أكون معاها
مكونش لوحدي
وأنجح وأشتغل، ولما أكبر
أنا عايز أبقى محامي
وعايز ...
أنا عايز لما أكبر أقدر أعمل حاجة لأخواتي
ظهرت مريم وابتسمت وقالت:
متفائلة جدا جدا جدا
بفضل الله كلمة الاحتضان وصلت لفئات كتير من المجتمع..
كلهم بيتكلموا نفس المصطلحات؛
(احتضان، كفالة، الأم الحاضنة، الطفل المحتضن، الأم البيولوجية، عقد الكفالة)
كل الناس باختلاف مستوياتها..
أسر حاضنة أولادها في مدارس ألماني وانترناشيونال بتتناقش مع أسر أولادها في مدارس حكومية..
هدفهم واحد؛ يوصلوا لمستقبل أفضل لأبنائهم بالكفالة..
هو فيه أفضل وأحسن من كده؟
لا، أنا أحلامي كتير..
بحلم إن يكون منظومة الأسر البديلة
ومنظومة دور الرعاية منظومة مركزية
لها قاعدة بيانات واحدة
أي حد يتم الموافقه عليه إنه يحتضن
يروح لمكان واحد
المكان ده يكون فيه قاعدة بيانات لكل الأطفال في دور الرعاية
اسم الطفل
صورته
معلومات عنه
صورة شهادة ميلاده
الأسرة تقدر تختار ابنها أو بنتها
وبعدها يتم وضع علامة إن الطفل ده تم اختياره من قبل الأسرة اللي بياناتها كذا وكذا
و بعد ما الطفل يتم استلامة يتم حذفه من قاعدة بيانات دور الرعاية وإضافته لقاعدة بيانات الأطفال المحتضنين..
نفسي إن المهمة العظيمة دي تقوم بيها مؤسسة الاحتضان في مصر
بالتعاون مع وزارة التضامن..
أي أسرة تاخد جواب مشاهدة للأطفال

تروح مؤسسة الاحتضان في مصر
تختار الطفل وتروح تخلص إجراءاته
وتروح تستلمه
من غير ما تلف على الجمهورية كلها عشان تبحث عن الطفل.
بحلم كمان إن فكرة الرعاية المؤقتة والرعاية البديلة بأجر يتم تفعيلهم
Foster caring
الأطفال اللي فرصتهم صعبةأن يتم كفالتهم في المنزل كفالة تامة
ميتحرموش من الجو الأسري
يكون فيه أسر تكفلهم ولو كام سنة فقط
و بعدها يروحوا لأسر تانية ظروفها مناسبة
و تكون الرعاية مقابل أجر وشروط مختلفة من وزارة التضامن
في النهاية هو حل أفضل من البقاء في دار رعاية.
بحلم بمنظومة الأخ الأكبر تطبق على مستوى دور الرعاية في الجمهورية
يعني اللي مش قادر يكفل في بيته ممكن يسجل نفسه إنه أخ أكبر لطفل
و يتابعه دراسيا ومعنويا ونفسيا طول حياته.
بحلم إن الطفل المحتضن يكون فخور بنفسه في المجتمع
و ياخد نفس الحقوق بالظبط زيه زي أي طفل؛
اشتراكات النادي والمعاشات والكليات العسكرية وغيره.
بحلم إن كل أسرة تكفل يكون معاها دليل إرشادي فيه كل المواضيع المهمة عن الاحتضان..
وأهمها كيفية حكاية الحقيقة للطفل بطريقة صحيحة.
بحلم إن كل مكتبة عامة أو مكتبة في مدرسة أو مكتبة صغيرة في أي بيت يكون داخلها
قصص عن الاحتضان والكفالة
روايات عن الكفالة والاحتضان
كتب عن الكفالة والاحتضان.
بحلم إنه يتم السماح للأم إنها تحتضن طفلها من أول يوم للعثور عليه بعقد رعاية مؤقت..
و بعد ما يتم التلات شهور يتم عمل عقد رعاية جديد دائم
عشان أول ٣ شهور هم أهم فترة في حياة الطفل.
عادت الصورة مع لمياء فقالت:
أنا بحلم
إن الأطفال المحتضنين ميكونوش أصحاب ظروف خاصة ولا درجة تانية في الدولة والمجتمع..
نفسي الناس كلها تفهم إن الطفل ملوش ذنب في حاجة ومينفعش نحاسبه على خطأ مارتكبوش..
نفسي في مجتمع احتضان واعى وأمين على الأطفال..
نفسي الأطفال المحتضنة تاخد حقوقها كاملة..
نفسي بنتي متحسش بأيألم أو وجع نفسي بسبب إنها محتضنة..
ونفسي يكون فيه اهتمام بنفسية الطفل وبناء شخصيته فى المدارس وغيره..
نفسي أولادنا يكونوا فخورين بنفسهم وعندهم قوه وشجاعة يواجهوا الدنيا كلها.

ظهر تامر والد حور وابتسم وقال:
هو مش حلم على قد ما هو هدف..
وهو إنه ميبقاش فيه دور أيتام وكل الأطفال يكون مكانها البيوت..
وده مش هيحصل إلا لو كل عناصر المجتمع اشتركت فى التنفيذ..
توضح وتعلم الناس الحكاية من خلال لقاءات تلفزيونية على الفضائيات والسوشيال ميديا وندوات وأفلام ومسلسلات..
وعلى فكرة
لو الفكرة انتشرت
زي ما احنا بنسعى، سهل جدا نلاقي كل طفل تم العثور عليه موجود فيأسرة
وسط عائلة ترعاه.
ظهرت راندا وابتسمت وقالت:
بحلم يبقي فيه قانون مستقل للطفل المكفول يديه كل حقوقه
ويساويه بأي طفل..
بحلم ييجي اليوم اللي كل الأطفال المحتضنة تفتخر بنفسها وبوجودها وسط أسرها الحاضنة بدون أي خجل أو ضيق أو خوف من عدم تقبل المجتمع أو عدم استيعابه لحقيقتهم.
بحلم بيوم يكون لكل طفل يتيم أسرة جميلة تحبه وترعاه ما يبقاش فيه دور أيتام ولا ناس كل همها تجمع تبرعات على حساب الاطفال.
وفي النهاية بحلم إن الاحتضان في مصر جذوره تقوى وفروعه تكبر ويبقي كيان قوي تستظل بيه كل الأطفال المحتضنة والأسر الحاضنة..
عادت الصورة مع هاجر وقالت:
«متفائلة جدا باللي وصّله الاحتضان طبعا»
لكن متخوفة إنه يبقى تريند
والناس كلها تاخدها كموضة إن يلا كلنا نكفل أطفال
وبعدها لما تبدأ السلوكيات تظهر
والمشاكل النفسية تظهر خصوصا في سن المراهقة
يبتدوا يرجعوهم تاني..
أو فيه ناس باشوفهم من كتر القصص الإيجابية اللي بتنزل على الصفحة
بياخدوها إنه احنا عايزين نعمل كدا
اللي هو برضو كترند وشهرة وموضة
وتبقى النهاية الأطفال ترجع تاني..
بحلم ...
بحلم إن كل أسرة عندها أطفال بيولوجيين
أو معندهاش تحتضن طفل..
بحلم كل الأسر يكون أساسي عندها طفل محتضن وتكون دي ثقافة مجتمع
مش الناس لما تسألك تستغرب لما تقوليلها..
لا، كل طفل يكون له بيت.

عُدنا لسوهاج فظهرت حنان وقالت:
أنا قاطع بيا قوي الولاد في الدور
يمكن في المدن يكون فيه وعي وانتشار للفكرة.
إنما عندنا في الصعيد لسه مش كل الناس عارفة يعني إيه احتضان..
فأنا بحلم إن أنا أقدر أفتح فرع تاني لمؤسسة الاحتضان في سوهاج
ويكون فيه مكان واضح بحيث يكون أول أهدافي
أوضح للناس يعني إيه كفالة..
إن الأطفال دي محتاجانا..
وبحلم برضو
أفتح دار لأي طفل يتربى عندي أكون حاسة بيه وبمشاعره..
دار في صعيد توفر الرعاية النفسية للأطفال..
ومش هاسمح لحد أيا كان يمس حد من ولادي..
شوفي الغلطة بفورة
بصي إلا الأطفال
وبعدين كفاية اللي هم فيه
فأنا باحلم أفتح الدار دي عشان الأطفال دي تتربى صح
حتى لو ربنا ما رزقوش بأسرة يلاقي رعاية صح
مش هيكون عندنا مشرفات؛ هيكون فيه أمهات
أمهات معايا تساعدني نعوض الأطفال دي.
عادت الصورة لطفلة تلعب بدميتها ثم حملها والدها ودار بها فعلا صوت ضحكاتها واقتربت الصورة أكثر حتى ملأ وجهها الشاشة ثم جاء صوت يمنى وقالت مبتسمة:
بحلم..
بحلم إن بنتي تطلع وتعيش في مجتمع هو عارف يعني إيه بنت محتضنة..
بحلم إن الناس تبطل تعاملني إن أنا أم درجة تانية..
أنا أم درجة أولى..
بحلم إن بنتي متواجهش نظرات أنا عارفة إنها فيها مليون ألف سؤال.
لمعت الدموع بعينيها فتجاوزتها باتساع ابتسامتها وأكملت:
نفسي ألم الفقدان اللي هيكون في قلبها
بسبب متلازمة التخلي يعدي عليها بردا وسلاما..
عندي حلم بقى مش عارفة هو عام ولا خاص
بس بحلم إن أكون من ضمن الأشخاص اللي قدروا يأثروا في الإنسانية لمليون سنة قدام..
نفسي أشوف بنتي في مكان مرموق في اليونيسيف وتدافع عن كل الأطفال..
عندي أحلام كتير قوي..
وبحلم..
أشوف مؤسسة الاحتضان في مصر نقول لو ربنا أراد وكنت عايشة بعد عشرين سنة منظمة دولية عالمية للدفاع عن أي طفل ربنا أرادله إنه يكون مختلف..

نفسي بعد ما أموت يتقال كان فيه أم فتحت الطريق لأمهات كتير لما قررت تفرقع بالونة الخوف وتقول لكل الناس بكل فخر أنا أم حاضنة..
وساهمت ولو بجزء قليل إنها تعرف الناس
إن الأطفال مكانها البيوت.
.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر خاص

مؤسسة الاحتضان في مصر
لمساهماتهم في ظهور هذا العمل للنور.
الأسماء حسب الظهور:
أ\ يمنى دحروج
أ\ راندا عادل
أ\ لمياء نصار
م\ تامر سيد
د\ مريم الشرقاوي
أ\ حنان محمد
د\ هاجر عبد العال
خالص الشكر والتقدير لتواجدهم بقصصهم وتجربتهم الحقيقية.
زي.. الحلم
تصوير ومونتاج
ضياء سالم
رؤية وإخراج
رقية كامل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر خاص..

لكل من ساهم في خروج هذا العمل للنور كما أخص بالشكر
أختي العزيزة \ إيمان محمد
صديقتي الغالية سامية أحمد - وأصدقائي هاجر حمدي حسن - مروة صادق - منى غيضان
وشكر موصول لـ
الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف
دكتورة هاجر عبد العال
المهندس أيمن حويرة
الصديقة نهى عودة
وكل الشكر والتقدير لـ
مؤسسة الاحتضان في مصر بكل أعضائها لمشاركتهم في العمل من خلال قصصهم وتجاربهم
يمنى دحروج
راندا عادل
لمياء نصار
حنان محمد
دكتورة مريم الشرقاوي
المهندس تامر سيد
بطعم البيوت
رانيا الطنوبي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

اهداء..

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(١٠)

شكر خاص

شكر خاص..

Notes

[←1]

(1) عربة.

(2) لقطة مصورة من عربة متحركة توحي بقرب الصورة للأمام. [←2]

[←3]
(3) حركة أفقية حيث يتم تحريك آلة التصوير أفقيًّا من اليمين لليسار والعكس وهي مثبتة على الحامل أو على عربة.

(4) لقطة مصورة من عربة متحركة توحي ببعد الصورة للخلف. [←4]

[←5]
(5) تغيير البعد البؤري. تظاهر بتحريك آلة التصوير تجاه الموضوع أو بعيدًا عنه بواسطة عدسة لها بعد بؤري متغير.